واهب الكيالي

المناديل البيض

مجموعة قصص

دار القلم

مواهب الكيالي

المناديل البيض

مجموعة قصص

قدم له

حسين مروه



نقد ، وتقديم ...

بقلم : حسين مروه

انا اعرف ان لكتابة المقدمات ، عندنا ، «تقاليد» و « طقوسا » مفروضة تجب رعايتها ، واعرف ان هذه التقاليد وهذه «الطقوس» تكلفني اعباء ثقالا لست من القادرين على النهوض بها ، لانني لست من القادرين على إزجاء الثناء والتقريظ بالمكاييل دون حساب ، كما تقتضي تقاليد المقدمات و « طقوسها » المتبعة عندنا .

ولكن هل يمنعني هذا ان اكتب « مقدمة » هذه المجموعة ؟.

يبدو لي ان ليس في الامر مانع قطعاً ، بل يبدو لي ان هذه فرصة صالحة يجب ان اغتنمها للثورة بكل هاتيك التقاليد ، وبكل ما تفرضه من «طقوس» وما تقتضيه من «تسابيح» و «تهاليل» بين يدي صاحب الكتاب الجديد ، كما يفعل «الدرويش» وهو يتقدم موكباً من «مواكب الذكر» يباركه بالتسابيح والتهاليل ، ويحوطه بالعبق الطيب من «البخور» !.

وما اظن فرصة تواتيني كهذه الفرصة ، فصاحبي الذي اقدم له كتابه ، ممن ليست تستعبدهم التقـــاليد ، كما اعلم ، بل هو ممن يؤمنون بالابداع والتجديد ، وهو — الى ذلك — مؤمن بنفسه ، اي بانسانيته ، لانه مؤمن بالانسان من حيث هو الانسان ، وهو — لذلك — يعرف اين موقع الخطأ عنده واين موقع الصواب ، ويعرف من اين يأتيه الخطأ ومن اين يأتيه الصواب ، ثم هو يعرف ، بعد ، كيف يملك بارادته الانسانية الواعية ان يستدرك الخطأ من حيث يملك مصادر الصواب .

فاذا كان صاحبي على مثل هذا كله ، فكيف يصح لي - اذن - ان اضيع الفرصة ؟. كيف لا اثور به هو نفسه ، في حين اثور بتقاليد المقدمات وطقوسها المتبعة ؟.

وبعد ، فهذه « مقدمة » تقصد - اذن - الى نقد الكتاب وصاحب الكتاب ، اكثر مما تقصد الى « التقديم » الذي تعارفنا عليه منذ زمن ، وهي تحاول - في سبيل ذلك - ان تعتمد الصراحة اجرأ ما تكون الصراحة.

•

وندق ، الآن ، باب هذه المجموعة ، ثم نطوف في جنباتها نتعرف الى وجوه الاشخاص وملامح افكارهم ونوازع نفوسهم ، وكيف يلابسون الحياة ويعايشونها ، وكيف يتصلون بحركة الحياة ويتأثرون بها.

ونخرج ، بعد ، من هذا التطواف في دنيوات القصص الست التي تحتويها هذه المجموعة ، فاذا بنا نعلم ان الكاتب قد انشأ هذه الدنيوات في اوقات متباعدة ، تخالفت فيها نظراته للحياة ، وتباعدت خطواته في مراحل التطور النفسي والعقلي معاً ، فليس بينها اتساق في مزاج النفس ، وليس بينها اتساق في طريقة النظر الى الحياة ، ثم ليس هناك كبير صلة بين هذه الدنيوات التي يعيشها ناس القصص الست ، وبين هذه الدنيا الواقعية التي يعيشها ناس اليوم الحاضر في الوطن السوري ، حيث يعيش الكاتب نفسه ، وحيث يتلذع هو وصحبه ومواطنوه جميعاً بصنوف من المكاره ، وصنوف من الكبت العسير الشديد ، وصنوف من الضيق : ضيق الصدور ، وضيق السجون ، وضيق العيش ، وضيق فسحات الفكر ...

فهذه قصة « النافذة » تنفتح لك عن دنيا ليست من دنيا الشعب السوري اليوم ، فهي دنيا مليئة بعبث الفتى المراهق ، وصبواته

الهائمة ، واحلامه الطيبة الهانئة ، ليس يصرفها عن ذلك كدر واحد من هذه الاكدار الكثر التي تزدحم ازدحاماً في حياة هذا الشعب وهو يمتحن بمكائد الاستعمار تشتد به كل يوم دفعاً الى الهاوية ، في حين يشتد الشعب كفاحاً عجباً لهذه القوى التي تكيده من داخل ذاته ، وتكيده من خارج ذاته ، في وقت معا ...

وهذه قصة « جارتنا وجارتنا » تدخل الى دنياها، فاذا انت تدور في فراغ عجيب ، فهناك ناس فارغون من هموم الحياة ومشاكلها ، وهناك حركات وحوادث ليست من هذه الارض السورية التي تغلي وتفور اليوم بالهموم والمشاكل ، وبالحركات المتوثبة والحوادث الجسام.

وقصة « اليتيم » ... انها قصة نفس يعرض لها اليتم ، اي انها قصة كل نفس في كل زمان وكل مكان ، قصة تجري في هذا المجرى الازلي الابدي الرتيب ، تتغير الدنيا كلها ولا يتغير ولا ينحرف ، وتتطور الحياة من الجذور والاعماق ولا يتطور هو ، لانه ليس موضوعاً للتطور .

فالقصة - اذن - لا تأتي بجديد ، لا في الموضوع ولا في التحليل ، لانها لا تخرج من نطاق المشاعر الفردية الخالصة الى الملابسات الاجتماعية التي تحيط بحادث اليتم حين يعرض لفتى القصة في ظروفه الزمانية والمكانية ، ولو خرجت القصة الى شيء من هذه الملابسات ، لكانت على شأن كبير ، لأن فيها عناصر فنية كانت تكون كبيرة النفع لأغناء القضية الانسانية التي تدور عليها .

•

هذا شأن القصص الثلاث الاخيرة في هذه المجموعة ، وقد تحسب اني بدأت الكلام عنها دون القصص الثلاث الاولى ، لمجرد القصد الى النقد و « التجريح » ...

ولكن الامر ليس كذلك ، فأنا اعلم ان مواهب الكيالي

اديب يرى فن الادب اكبر وانبل من ان يعتزل حياة مجتمعه وما يدور فيها من احداث ومشاغل ومـــا يمتحن به ناس مجتمعه من مشاكل ومكاره ، ويرى ان الادب رسالة قبل ان يكون تلهيـة وتسلية ، وان الادب وسيلة شريفة جميلة دون ان يكون غاية لذاته.

وانا اعلم كذلك ان مواهب الكيالي اديب يؤمن بالانسان ويؤمن بالتطور ، وانه – لذلك – يؤمن بالشعب ، فكيف صح له – اذن – ان ينصرف ، في قصصه الثلاث الاخيرة من هذه المجموعة ، عن حياة شعبه المناضل ، الى «فرديته» الخالصة ، الى هذه المشاعر العابرة تختلج بها نفس فتى مراهق فارغ البـال من هموم مجتمعه كلها .

الامر في هذا واضح عندي كل الوضوح ، وهو ان مواهب قد كتب هذه القصص الثلاث منذ زمن بعيد ، كتبها وهو فارغ البال – فعلا – من هموم مجتمعه ومكاره العيش في وطنه ونكبة الفكر والحرية في بلده .. كتبها ولما تتفتح براعم الوعي الوطني في ذهنه ، ولما تلفحه سموم هـذا الهجير الذي يهب اليوم من كل صوب على الاحرار والمناضلين والكادحين من ابنـــاء شعبه .. كتبها وهو ما يزال في « ضباب » المراهقة يحلم ويتخيل ويتوهم بعيداً حتى عن لحمه ودمه ...

ولكنك تسأل : اذا كان مواهب الكيالي قد كتب قصصه هذه قبل اليوم ، قبل ان تمسه النار المقدسة التي تستثير اليوم احرار الفكر وشرفاء الوطن في سورية ، فكيف صح له – اذن – ان ينشر هذه القصص الثلاث في هذا اليوم العصيب ؟

هذا سؤال صحيح ، ولعلني اكون اشد قسوة منك على صاحب الكتاب ، فأرى في نشر هذه القصص اليوم ، « انهزاماً » من الواقع ، واري فيه ايضاً ان مواهب الكيالي قد اثقله الواقع حتى اعياه ان يقول فيه شيئاً ، واعياه ان يثور بسيئاته وآثامه ، بل

اعياه حتى من ان يتململ بهذا الواقع ويتذمر ، فلجأ الى هــذا السبيل من « الانهزام » !..

وما ادري : اهو معذور في هــذا ، ام لا يجد له الادباء الوطنيون المناضلون في بلده ، وفي سائر بلداننا العربية ، شيئاً من العذر ؟

وما ادري كذلك : اهو وحده المؤاخذ في هـذا ، ام هو وجميع اخوانه الطيبين في « رابطة الكتاب السوريين » ؟

نتساءل هكذا ، ونحن بعيدون عن الكاتب وعن اخوانه هؤلاء جميعاً ، وقد تنشر هذه « المقدمة »دون ان يراها احدمنهم، اي دون ان يتيسر لهم ان يجيبوا بشيء عن هذا التساؤل، ودون ان يدفعوا شيئا من هذه المؤاخـذة عن انفسهم ، ولعل لهم من الواقع ، الذي يشد على صدورهم ويمسك باقلامهم ويقبض على موارد اقواتهم، ما يحول بينهم وبين ان يقولوا شيئا في جوابهم لنا!.

فهل نحن ــ اذن ــ مخطئون بمؤآخذتهم؟

نعتقد ان الذي نقوله هنا ، يجب ان يقال لهم على كل حال ، ونحسب ان وثبة « رابطة الكتاب السوريين » اوسع مدى من ان تضيق بهذا القول ، او ان يضيق بوجههــا السبيل الى دفع « الانهزامية » عن نشاطها المتحفز .

•

ونفرع ، الآن ، للكلام عن القصص الثلاث الاولى من هذا الكتاب :

ونقول باجمال : ان هـذه القصص تختلف عن تلك اختلافاً واضحاً ، ففي كل واحدة منها وجه من وجوه الحيـاة الشعبية في الوطن السوري .

ففي « المناديل البيض » صور حية صارخة من هذه الحياة التي يحياها ناس من جوهر الشعب، ولكنهم على هامش الحياة الانسانية!

اولئك ناس ابرياء بسطاء، يعيشون في ضنك وجدب وحرمان، الى رتوب في مجرى العيش ، ورتوب في وجوه الطبيعة ، ورتوب في احساس النفوس ومشاغل الاذهان ، فكل شيء ثابت راكد لا يتبدل ولا يتجدد ، وكل شيء كامد باهت مقفر لا زهو ولا خصب ولا نضرة ولا خضرة .. كل شيء هكذا الا ذكرى صامتة صارمة تهيج ابداً في ذلك العيش القفر الباهت الراكد ، فتتلذع بها حنايا تلك النفوس البريئة البسيطة ، و تتحرك بها حياة اولئك الناس الابرياء البسطاء، ثم سرعان ما تخمد الذكرى وتعود حياة القوم الى رتوبها العتيد ..

تلك ذكرى « المناديل البيض » وقد عادت ربات المناديل الى القرية ذات صباح وهي حمر قد خضبتها دماء .. ولن كيف كان هذا ؟

القصة لا تجيب بوضوح عن هذا السؤال، ولكنها تسكب في نفسك احساسا بعيد الغور ، وتشيع في ذاتك اعجابا مثيراً بهؤلاء الناس الابرياء البسطاء من الشعب ، وتشعرك بأن للقوم سابقة رائعة في جهاد الفرنسيين المحتلين يومذاك ..

على ان نهاية القصة لا تخلو من بادرة « انهزام » تبدو من موظف الميرة حين يحس بلوعة هذه «الذكرى» تصل الى نفسه، وحين يضيق بهذا الرتوب الراكد الكامد في حياة القوم ، فاذا هو يفر من حياتهم هذه ، لا يحاول ان يلقي « حجراً » في « البركة» الراكدة لعلها تتحرك ، لعل مياهها ترتفع، فتجري ، ثم يكون شيء جديد ..

وفي قصة « الثأر » تقف الخيانة بابشع وجوهها ، والوطنية باكرم معادنها ، وجها لوجه يصطرعان ذلك الاصطراع الهائل الرهيب في شخصي : « عوض» و «ابي عوض » حتى ينتهي بهما الامر الى « الثأر » فاذا « ابو عوض » يعود الى رجولته الصارمة، والى مكانه المطمئن من حياة المواطنين الشرفاء .

واما «الموكب الاسود» فهي قصة المأساة التي يعيشها الكثيرون من ابناء هذا الشعب العربي في سوريا ، وفي لبنان ، وفي كل ارض العرب من اطرافها ، وهي القصة الوحيدة في قصص هذه المجموعة ، من حيث كونها تتحدث عن بعض جوانب الحياة السوريه في يومها الحاضر .

هي قصة هذا الشباب البائس ، الحائر ، المتعطل ، تضيق بوجهه سبل العيش ، الا ان ينحرف الى سبيل الشر : الى التهريب ، او السرقة ، او السلب ، او القتل ، او الميسر ، او الغصب والمكر والاحتيال ، ثم يكون مصيره الى حبال المشانق... لان هذه كل حيلة النظام الفاسد في اصلاح النفوس ، ومعالجة الاجرام ، وكفاح الشر ...

•

وبعد ، فان للفن حقاً ان لا ننساه في معرض الحديث عن قصص هذه المجموعة .

والواقع ان مواهب الكيالي يملك ذخيرة من المواهب الفنية تستحق منه مزيداً من الرعاية والعناية ، حتى ينشىء من هذه

الذخيرة بناء ادبياً رفيع العماد مشدود الاركان .

ولعل ملكة التصوير الدقيق البارع ، وقدرته على الاتصال العميق بجو الاشخاص والحوادث في قصصه ، هما من اظهر مواهبه الفنية التي تتكشف عنها قصص هذه المجموعة كلها ، واحسب ان هاتين الخاصتين قد تكونان الان موشكتين ان تتكاملا في نتاج جديد يطلع به على نحو جديد ، واتجاه جديد ...

وخاصة ثالثة في قصص مواهب ، احب ان تزداد وضوحاً في قصصه المقبلة ، وهي انه قاص متمرد على قيـــود القصة المألوفة ، متحرر من تلك المقاييس العتيقة التي كانت تستعبد كتاب القصة عندنا استعباداً عجيباً .

فقد جاء مواهب قصاصا واقعيا سمحا لا يتقيد بطريقة السرد التقليدية ، ولا يصطنع الحبكة القصصية اصطناعا ، وانما يجري مع الواقع الذي يصفه ، وفقا لما يجري عليه واقع الامور نفسها .

هذه خاصة رائعة ، اذا استطاع صديقنا مواهب ان يستثمرها في فنه القصصي ، كانت خير معوان له على الاستفادة من ذخيرته الغنية الموفورة.

حسين مروه

المناديل البيض ...

زمان الحكاية ... ذات يوم من العام ١٩٤٢ . ومكانها .. منزلنا : امي واخوتي وانا .

وكان الزمان فترة من فترات البحران التي تمر احياناً بالشعوب المستضعفة . وشعبنا فيما نعلم – كان في القـــافلة المستضعفة اثناء الحرب . فلا نحن دولة محاربة لها ميزان بين المحاربين ولهذا الميزان كفتان من الانتصار او الانكسار .. ولا نحن دولة محايدة، تجلس او تقف في صفوف المتفرجين ، ولا يصيبها في الحالين ، سوى ثمن التذكرة تدفعه من بعض اقتصادياتها ، ثم رضوض يسيرة تصاب بها اثناء الزحام . لم تكن بلادنا شيئاً من المحاربات او المحايدات ، ولم تكن في المعركة ولا ابعد من المعركة انما هي في حال عجيبة غريبة ليس لها رأس من ذنب فقد اعلنت الحرب ولم تحارب وصار لها حلفاء وخصماء وهي لم تحالف احداً ولم تخاصم احداً وقيل لها : انها اسهمت في النصر ، وبلغت النصر ، ولكنها لم تلمس في جنيها الاكليل .. فهل لهذه الحال اسم غير البحران ؟!

ثم ان الحرب كانت في حساب الابعاد معدودة حوالينا ولكنها في الواقع كانت علينا .

فالمحتل الواحد الذي كان قبلها يتكلم الفرنسية اصبح خليطاً من لغات برج بابل .. والجيوش المحتلة التي كانت تبتلع كل يوم من السوق بضع سحارات من الخضار ومثلها من الفواكه التهمت السوق كلها ، حتى انعدم كل شيء ما عدا نفاية السوق ...

وامتدت الايدي الاجنبية الى المحصول على امه ، سنابل في الحقول او عناقيد في الكروم ، او براعم في الغصون فمسحت عليه بالقطف والنتف فلم يبق لنا سوى الجوع والدموع اقتسمها السكان بالقسطاس ، ما عدا فئة هيــــأت الكأس للشارب ، واعتصرت له العنقود ، وارتضت لنفسها المقدور ... فهل لهذه الحال اسم غير القطران ؟!

في تلك الايام ، وجدت نفسي اواجه عسر الحياة بلا عمل ولا امل .. حتى كان يوم .. قالت فيه امي وهي تهز اصبعها في وجهي وتمسح عينيها بطرف كمها :

— فلان قريبك هيأ لك وظيفة في الميرة فمتى تسافر ؟

وكان في لهجتها شيء كالأمر .. او قولوا إنها دالة الامهات او نرفزة الارامل ، او كلتاهما معاً .

فوجمت ، ولم اجب ، بل اطرقت ملياً لـكي اجتر تلك السبة الجديدة ، كوني اصبحت واحداً ممن يهيئون الكأس للشارب الغريب ويعتصرون له العنقود .

وخيل اليّ انني اسمع هاتفاً مجهولا يقص في مسمعي قصة آخر

الزمان ، حيث كما يقال « يضطر الناس الى اتباع ياجوج وماجوج اكبر في الارض .. من اجل لقمة الخبز ..

في صباح اليوم التالي ركبت الى رزقي حصاناً شموسا اعارني اياه صديق فاعارني الشيطان بصورة حصان .. واخذت طريقي الى مركز عملي الجديد في احدى القرى لكي اعاون رجال التموين التابعين للجيوش الاجنبية في اعتصار دماء فلاحينا الى آخر نقطة..

كانت السهول ملء المدى تتماوج بالسنابل كأنها البحر الاصفر، والفضاء معطر برائحة الارض ، واغنية حزينة تترامى من بعيد ، متموجة الصوت ..كارتعاشة الامل الذي لم يتحقق ، وخوار بقرة كانت تبدو من بعيد كالنقطة السوداء في حقول القمح المذهب .

ولم اكد اشارف القرية في عزلتها الصخرية فوق قمة الجبل حتى اخذت اطمأن من حماسة الحصان ، واهمس اليه بلهجة رقيقة متوسلة:

– هيس ... دخلت.

فقد كان شر ما اخشاه ان يفطن اللعين الى احدى لعبه الخطرة فيشب على قائمتيه الخلفيتين لكي يلاكم الهواء .. واشر من ذلك ان يفعل فعلته هذه امام جمع القرويين الذين اقبلوا نحوي .. منذ تلامحت لهم على حدود البيدر ، فأرخيت الزمام الى آخره دفعا لما يجره سوء التفاهم ، وباعدت قدمي عن بطنه الى آخر ما استطيع كيلا يستأنف معي لعبة القفز والنط والتقدم والنكوص واستباق الريح .. ثم امعنت في مجاملته فاخرجت منديلي ، ورحت امسح الزبد الذي كان يتغله من خلال اللجام .

هكذا وصلت القرية ، واعتقد انكم تسمحون لي بكلمة، اجعلها

بين قوسين ، قبل ان امضي بكم الى داخل القرية ، لكي اوضح بها علاقة زمان القصة ومكانها بما يأتي من السرد ،

اولا .. ليست هذه الصفحات التي اتلوها شيئاً من القصة ، اذا كان علينا ان نأخذ بالقواعد والاساليب المتبعة في فنون القصص .. انما هي صور مرسلة عرضت لها باسلوب مرسل ..

ثانياً .. ليس للعام ١٩٤٢ ولا لمنزلنا علاقة بالمناديل البيض .. وانما هو خيط قصير يتبقى في المكوك بعد الفراغ من نسيج ليربط خيطاً جديداً من نسيج جديد .

ليس من علاقة اذا اعتبرنا بيتنا في دمشق منفصلا عن اية قرية نائية في الشمال ، او ان امي واختي تنقطع اسباب العلاقة بينهما وبين اية ام واخت من بنات فلسطين .. او ان عام ١٩٤٢ لا علاقة له بعام ١٩١٦ ، او ان العسكري الفرنسي الذي افترس صبية قروية على طريق حلب لا علاقة له بالعسكري الانكليزي الذي ارتكب الاثم نفسه على طريق الاسماعيلية ..

ثمة علاقة – اوثق علاقة – بين الزمان والاخر على اختلاف الازمان ، وبين المكان والاخر على اختلاف المكان ، وبين الحادث والاخر على اختلاف الحادثات ، وثمة علاقة – اوثق علاقة – بين امهاتنا واخواتنا وبين الامهات والاخوات الكوريات والكينيات والمغربيات والفلسطينيات وعلاقة مثلها بين دانشواي والغوطة والرباط وسيؤول وبنت حمال في مرفأ ليفربول او مرسيلية او نيويورك . وامرأة تجلد بالسياط في مأذنة الشحم . كلهن خيوط في هذا النسيج الاسود الذي يمسح به اعداء الانسانية الارض .

اقسم على انني جريح منذ اطلقت الرصاصة الاولى في القتال ..
ولقد شنقت مرات احداها في دانشواي وقبلها على يد جمال
السفاح ومثلها على يد نوري السعيد .. وسوف اشنق غداً مع ابطال
الماوماو وجنوب افريقيا ، ولكم جلدت بالسياط اللاهبة في شوارع
مدن المغرب وايران والهند مثلما جلدت في شوارع دمشق وحلب.

ولكنني ما يئست ولن ايأس فانا على ثقة من انني سأبلغ ذات
يوم ما تبلغه الشعوب المعذبة من الانتصار على العذاب ،والانتقام
للعذاب لانني.. انا السيد ، انا الانسان .

هذا ما اردت ان اقوله بين قوسين قبل ان اترجل من فوق
الحصان والقي بزمامه الى فتى من القرية ازغب الوجه يميل قليلاً الى
النحول . ثم سرت مع الجمع يتقدمنا بعض الصبية والكلاب .

وكان الاطفال يرمقونني من خلال اعينهم الكليلة من الرمد، وهم
في دهشة من هذا الزائر الغريب..

واعترضنا في بعض الطريق شيخ محدودب الظهر وبعد ان
صافحني بمودة قدم لي غليونه الاثري المصنوع من خشب الزيتون..

وكانت القرية مؤلفة من بضع قباب من الطين منتثرة بغير
نظام بين الصخور..

ولعل موقعها المنيع قد اسبغ على اهلها لمحات من المعز ، فهم
صغار الاجسام ، معروقو العظام، سمر ، تتوهج اعينهم بشيء
كالعبث ، او الطفولة ، او الذكاء الشديد..

وكانت في مجموعها ذات لون رملي جاف يذكر بالصحراء
ويبدو مشهدها العام كلوحة مدهونة بالطباشير فليس فيها ظل ،

ولا خط اخضر ، ولا شيء غير الاشباح المعروفة من الناس ..

وخيل الي وانا ارقب الاطفال يقضمون كسراتهم اليابسة من الخبز ، انني اشهد آخر الدنيا ، حيث كما كانت تصف جدتي : « لا طير يطير ولا وحش يسير »

ولولا هذا الصوت الرتيب المتقطع احياناً الذي يصدر عن اسنانهم الصغيرة لازداد شعوري بالوحشة ، او لظننتني طحلبة وحيدة في احدى الصحارى الافريقية ..

كان علي ان انتظر تعليمات الادارة التي ستصلني غداً في الصباح بواسطة مخفر الدرك لكي ابدأ عملي في اعتصار القوم بقية الحياة التي يتنفسونها ..

وكانت مهمتي – بوصفي موظف ميرة – ان اعد محصول القرية من القمح حبة حبة ، واسجل نسبة الزؤان والاوشاب في اكياسه يوماً بعد يوم .. والا ما استحققت مرتبي الشهري ..

ان الحلفاء بحاجة قصوى الى النصر ، فما على اطفال القرية – كل قرية – في بلادنا الا ان يساهموا في المعركة بكل ما يملكون حتى بكسرات خبزهم التي كانوا يقضمونها كالفئران المذعورة ..

انها معركة حياة او موت حياة الحلفاء وموتنا ...

وتحلقنا في المساء حول « شاعر الربابة » حيث اعد المختـــار لجلوسي حشية من التبن على سبيل الامتياز ، بينما جلس بقية القوم على تراب البيدر ..

وكانت امسية هادئة من امسيات الصيف لا يسمع فيهـا غير شقشقة صرصور يسميه القرويون « طباخ العنب والتين »

وكانت الابصار محدقة بي تتناهبني بعديد من الاسئلة ..

فقال الشيخ ذو الغليون الخشبي يخاطبني :

ــ اي نعم يا سيدنا .. باين الجماعة طحشو !!

قلت : مين ؟!

فاجاب مذعوراً : الانكليز اي نعم الانكليز، وحياتك.

ولا ادري لماذا شعرت بالخجل لذعره هذا فقد كان رومل هو الذي « يطحش » آنئذ في الصحراء الغربية.. ولكني فهمت شيئاً.. ان الرجل يحذرني ، ويحتقرني ..

وكان علي ان اقول كلمة طيبة في الالمان لانتزع ثقة القوم بي، واقتلع من اذهانهم كوني عميلاً انكليزيا جاء يمتص دماءهم ..

يا للهوان ...

لم يبق علي سوى ان امتدح هتلر ، جنكيزخان القرن العشرين لكي اتطهر من سوأة الخيانة لحساب الانكليز ..

كمن يغسل اوساخ وجهه ببول البقر ..

وقلت كلمة في هتلر ..

قلت : انه يجند اعداءنا .. هذا صحيح يا جماعة ، ولكنه لن يوفرنا..

اجاب رجل : جحيمه ولا جنتهم .. مضبوط ؟

لم اجب فقد كان شاعر الربابة يتململ نافذ الصبر ، ويحز الوتر بقوسه بزعقة خائفة بين اللحظة والاخرى .. فاقبلت عليه وقلت بايناس : هات..

ما كاد الرجل يستشعر اقبالي عليه حتى اشتد من استرخاء

واستقام عوده حتى ايقن من اقبالي عليه .. ثم مسح انفه بطرف كمه كطفل مهمل ..

ثم قال بصوت فيه بحة خفيفة بعد ان سعل وتفل يمنة ويسرة :

– تأمر ..

وصاح رجل : سمع يا ناس قالها برغم السكون المخيم فوقنا وحوالينا ، ولعله قصد اعلامي باهتمامه ..

وخاطبني الشاعر قائلا بلهجة هي بين الحديث والنغم :

– شف مطلوبك فوق الرأس ..

عندي م الخبر اجناس .

خبر الزير وخبر جساس

عندي من كل بستان فلة

قلت مقاطعاً : غيره ..

فاستطرد :

عندي قصص كل الشجعان

واخبارهم يوم الطعان

وابو الفوارس يا اخوان

عنتر والظبية عبلة

قلت معابثاً : غيره..

فاضاف :

تسألني يا ابن العشرين

عن اخبار الغابرين

خبر مفرح وخبر حزين

كل حادث وله علة

ولم يلبث ان استقام النغم في حنجرة الشاعر واخذت ربابته تنوخ في نغمها الاسوان الرتيب ، وهو حان عليها كالام فوق سرير طفلها..

وران صمت ..

وخيل الي ان في الربابة حديثاً من رتابة الحياة في هذه القرية النائية ...

فلا جديد .. ولا شيء .. ولا حياة ،

لا جديد في هذه الايام التي تتابع على وتيرة واحدة ، الصباح صباح ، والمساء مساء ، والبقرة ولدت عجلة وكبرت العجلة فأصبحت بقرة ،

ولا شيء غير تلك النار الملتهبة في الكور ، وحديث معاد عن الغيث السماوي والمحصول المقبل ، ثم دخان .. دخان لا ينتهي من الغليون الخشبي .

اما الحياة فحدث عن الصحراء القراء في دنيا الاحياء ذلك ان اقرب مدرسة الى القرية تبعد سبعة وعشرين كيلومتراً ، والمرأة خلف الابواب او من وراء حجاب ، اما الدنيا بعمارها واوطارها وحركتها وبركتها فهي ابعد من الآفاق .. في البعيد البعيد ..

وامتد الصمت ..

ولم يلبث ان خيم السكون بعد ان الفت الآذان رتابة الربابة.. فرحت اتساءل :

ترى بماذا يفكر هذا الشيخ المحدودب الظهر ؟

وكيف يغازل هذه الشاب حبيبة قلبه ؟

وهذا الطفل .. هل يسمع من امه اغنية حنوناً قبل نومه ؟

وفجأة انقطع حبل الصمت والسكون والخواطر . دفعة واحدة . قطعه صوت يقول :

– باطل يا ابو ابراهيم .. وين مناديلك البيض ؟!

شعرت ان شيئاً حدث في الجو حين ذكر الرجل المناديل البيض، فقد مرت بين القوم همهمة غاضبة تشبه تلك الزمجرة التي تسري بين متهجدين قانتين اذ يرتفع بينهم صوت يسب الدين ..

واحس الرجل بالخجل فداراه باصطناع الغضب اذ صاح :

– وايش صار ! كفرنا !

فاجاب كهل بلهجة العاتب :

– حاشا الله ... ولكن معلومك ..

قال الرجل وشار نحوي بحركة معينة لم ادرك مغزاها ..

فرد الرجل الاول قائلاً :

غير معقول .. ابداً الحكاية التي ترفع الراس تحكى لكل الناس ..

وانخفضت حدة التوتر الذي ران على الجو بعد هذا التعليل الذي ارضى القوم فيما يظهر .. فتشجعت وكان فضولي بالغاً اشده لاكتناه سر المناديل البيض ، فالتفت الشاعر مقلداً لهجة القوي :

– باطل يا ابو ابراهيم .. وين مناديلك البيض ؟

لشد ما يؤسفني انني لا اذكر اليوم بيتاً واحداً مما غنى الشاعر تلك الليلة .

وقد تركت عهد الشعر منذ زمن طويل فلا قبل لي بنظم ما تبقى في اعماقي من اصداء تلك الليلة ..

تركت الشعر منذ اضطرتني الظروف الى وضع القلم في سباق مع المطبعة ..

ان الشعر يتطلب نفساً خلية شجية ، ويقتله او يشعله الوقت.

كان السمر يلتفون من حولي فتبــــدوا اجسامهم في الغبش كاشباح اسطورية ..

والصمت ليس بثقيل ولكنه كضباب تشرين مبلل بالدموع .

وارتفع صوت الشاعر كأنه دفقة الذكريات من اعماق السنين.

قلت انني تركت نظم الشعر فاليكم ما رتله شاعر الربابة منثوراً:

في دنيا المساكين .. يوم واحد بالف عام ..

ليلتها .. تفجر الصخر نفسه بالدموع ، وتوارى القمر خجلاً من حقارة بعض بني الانسان

ايعقل ان يأكل الذئب لحم ذئب ؟ كلا .. ولكن الانسان اكل لحم الانسان ..

صمتاً ايتها العذارى ، فنداؤكن لن يبلغ اسماع الرجال ..

ليس لان الشهامة مفقودة ..

انها موجودة ..

ولا لأن الضمير مات ، بل هو حي يتفجر بالحياة ..

لكن الرجال اصبحوا في بئر .. ذهبوا ولم يعودوا ..

فلما عاد الطريد وآب الشريد شاهدوا المناديل البيض اصبحت بلون الدم .

ولكنهم بكلمة . كلمة واحدة جعلوها بلون الثلج ..
لقد صرتم امهات يا ذوات المناديل البيض ..
لم يكد يصمت الشاعر حتى كان نشيج القوم يفح كانفاس الجياد المتعبة ..
ومن خلال الدموع تكلم رجل كهل من بين الجلوس فقال موجهاً خطابه اليّ :
— قبل ان تولد انت يا بني كانت هذه القرية موجودة ..
وقبل ان تولد انت كانت جماعة الحاضرين ، وانا منهم ، شباناً صغاراً في مثل سنك .. وكان لنا آمال في ان نزرع ، ونحصد ، ونتزوج وننجب الاطفال .. وكانت اغانينا ملء الارض وملء السماء لانها تنبع من القلب ،
وذات يوم انطلقت بضع رصاصات من ذاك السفح فاشتعل جبلنا بالنار ..
قيل لنا يومئذ : ان قوماً مبرنطين يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ، سيأتون على عجلات وخيول ، لكي يقتلوا شبابنا ويذبحوا اولادنا ، ويهتكوا اعراضنا ، ويأكلوا قمحنا .. فخفنا قليلاً وتحمسنا كثيراً وحملنا الفؤوس والعصي والخناجر .
ولم يكن هناك خيار يابني بين الموت او العار فاخترنا الموت .. ولكننا تبينا منذ اول معركة اننا جماعة من الضعفاء، فذقنا الموت ولم نسلم من العار ..
واستأنف الراوي حديثه قائلاً :
هذه القرية حصن منيع تحميها الصخور .. ولكن ما فائدة

الحصن الصامت الذي لا يرد علي المـــدافع باكثر من الرصاص والحجارة ؟

لقد كنا جماعة من الثوار لا يتجاوزون اصابع اليدين.. ولكن الفرنسيين لاقونا بعناد الجبهات ، فتهاوت قباب الطين بارعادالمدافع قبل نار هـــا وتهاوت مع البيوت نفوسنا .. فرقاً على النساء والاطفال ..

تصور يا بني.. سياطاً من جحيم ، وآفاقاً تغلقت منها الابواب، ورجلًا .. بل رجالا قساة غلاظاً يلطمونك ويركلونك وينتفون شعرك ويقتلعون اظافرك وانت مقيد الى جدار ..

لقد انتهينا .. هكذا همس احدنا ، وما في العنـــاد نتيجة .. هكذا همس آخر ، وعلينـــا ان نستسلم ، هكذا اتفق الجميع .. ثم تطوع عدد من شبابنا لحمل الرايات البيض الى معسكر الاعداء. فعارض قليلون ، ولكن بصوت خافت ضعيف ..

ولم يلبث هؤلاء الفتيان ان ساروا في موكب حزين تشيعهم زغاريد الجنازات ، واخذت الامهات والاخوات والزوجـــات يعفرن الوجوه بالتراب ، وتبللت لحي الشيوخ بالدموع .. ثم وقفنا ننتظر .. ندعو الله ونقرأ آية الكرسي ويس والف يا لطيف .. ولكن احداً من الاولاد لم يعد ..

لم يعودوا رغم دعوات القلوب المنكسرة ورغم احدى واربعين سورة يسين .. لانهم سكنوا بئراً مهجورة تحت عشرين قامـــة من الارض .

واستطرد الراوي بعد ان اخذ نفساً من سيكارته التي شعت

في الظلام كأنها عين مبصرة فقال :

– ثم كان يوم آخر .. فاذا القرية نقطة صغيرة في حلقة كثيفة من رجال ومدافع ، فتبعثر معظم السكان بين الصخور الصم لانها احن على الانسان من بعض بني الانسان ..

وكانت بناتنا يعقدن المناديل البيض على رؤوسهن دلالة على العذرة والطهر .. فلما ولت الشمس ، واغبش الليل ، ترامت الينا من خلال الصخور نداءات تفتت الصخور وخيل الينا ان النجوم تسمرت في افلاكها ، لما شعرنا به من شقاء بالغ تحالف معه الجوع والخوف فقعدنا في وجوم وذهول كأننا لسنا من انفسنا ولسنا من هذا العالم . . واندفع بعضنا نحو النداءات الغامضة يضرب في الظلام ، ثم لم يعد احد ..

فلما طلع الصباح ولا ندري كيف طلع ، رأينا المناديل البيض على رؤوس عذارانا مصطبغة بلون الدم ..

•

كاد الليل ان ينتصف حينما فرغ التاريخ من حكايته الحمراء .. وكانت كل جارحة من نفسي تنتفض بالحقد والخوف وما لا ادري من اشتات المشاعر ..

واخذ مضيفي يملأ ابريق القهوة لكي يضعه في النار .. ولم يكن هناك احد سوانا هو وانا ، بعد ان تفرق القوم عائدين الى اكواخهم لكي يجتروا ذكريات الشقاء ويحسبوا ما سوف تأتيهم الايام من شقاء .

وقلت لمضيفي وانا اعالج ثيابي لاغوص في الفراش الذي

اعده لي :

– لقد قسوت في حكايتك يا صاحبي فاثرت احزان القوم .

فالتفت نحوي بدهشة وقال :

– قسوت ؟ كلا يا اخي.. انني اريحهم بالدموع .. انها حكايتنا كل يوم ..

وفي تلك الاثناء عبرت الكوخ امرأة فاستوقفها الرجل قائلا:

– البن .. يا عليا ..

فغضت المرأة النصف من طرفها كعذراء في عمر البدر وتوارت خلف ستارة ، فلما تأكد الرجل من انها اصبحت بعيدة عن دائرة صوته همس بصوت خفيض :

– اختك عليا .. ام الاولاد .

ثم استطرد قائلا وهو يجمع شعث النار بملقطه :

– مسكينه عليا.. لم تنس لحظة ما مر بها في تلك الليلة. ولكم تمنت بعدها الموت حين عادت من مشارف القرية وعلى جبينها منديلها الاحمر.

فحملقت في الرجل دهشة وكتمت صيحة.. بينما استطرد قائلا:

– كانت عليا قسمتي حين تقدم شباب القرية العائدون لكي يغسلوا الدم من مناديل الرؤوس ويعيدوها بيضاء ناصعة كالثلج..

لا ادري كيف مرت ليلتي تلك فقد تحالفت الكوابيس وجيوش البق علي حتى كادت ان تفقدني الصواب بعد ان اطارت من جفني النوم..

ولم يلبث الصباح ان اشرق بلون الورد ، وتعطر الجو بأغاني

الصباح يقطعها بين الحين والاخر خوار بقرة او ثغاء شاة او عواء كلب ..

واطللت من باب الكوخ على دنياي الجديدة فشعرت ان الحياة في حركة دائبة صاعدة ، ولن تتسمر عند حادث في التاريخ ، ولكن الاحياء بحاجة الى الدموع ، مثلما هم في حاجة الى البسمات لكي يستلهموا من الاولى القوة والصمود ، ويعيشوا في الثانية

واقبل مضيفي علي قائلا :

ان المخفر يطلبك

ففطنت الى ان الادارة ستتصل بي لتبلغني تعليمات عملي الجديد .

فقلت مغيراً مجرى الحديث:

ـ دخلك بالي عند الحصان .. فاستدار الرجل ذاهبــاً نحو الاسطبل ، ثم عاد يجر حصاني واللعين يقفز الى امام او يحرن الى وراء او يشب الى السماء .

ومددت يدي اصافح الرجل .

فمال على يدي بلهفة حتى ليكاد يقبلها فقلت :

ـ انا عائد .. فالمقام بينكم يحتاج الى اعصاب ..

وايقنت ان الرجل لم يدرك ما اعني فقد سألني قائلا حينما علوت ظهر الحصان :

ـ الى المخفر ؟؟

قلت : كلا .. الى ضيعتي البعيدة ..

فجحظت عيناه بدهشة ساذجة وقال : والميرة ؟؟

فاجبت على عجل وانا امرق كالسهم :

ـ طظ ميرة ..

الثـــأر ...

« ... ونحن نحتفل بالذكرى الثامنة لعيد الجلاء. جلاء الاحتلال الاجنبي عن بلادنا. ارى من واجب حملة الاقلام ان يذكروا ، ومن واجب المواطنين ان يتذكروا ، ففي الذكريات المستنيرة حافز على النضال لدفع اثقـــال الاحتلال عن البقاع المحتلة من ارض العرب ، وصون البقاع المحررة من عودة الاحتلال ... »

•

احست ام عوض وهي تعد الجوز واللوز لتحشو بها رقاق العجين ان صدرها يضيق بهم ثقيل ، فاجأها على غير انتظار ، فقطعت لحناً شائعاً كانت تدندن به ، ومسحت كفيها بطرف ردائها ، وقامت نحو باحة الدار ، تلوب نحو لاشيء ، وفي نفسها ، مع القبق ، شعور بالخوف ، من طائف مجهول .

وكانت الدار هادئة يغمرها السكون ، الا من خرير مكتوم

يصدر عن ساقية بخيلة تعبر الباحة ، مما ضاعف احساس ام عوض بالوحشة ، واشعرها بالحاجة الى وجود انسان الى جانبها : جارتها ام حميد ، او سواها من الصديقات التي يحملن اليها الايناس بلغوهن وحكاياتهن ، كلما زرنها ..

ولبثت ام عوض تلوب في صحن الدار خائفة حائرة مستوحشة حتى سمعت المفتاح يدور في قفل الباب ، ورأت زوجها ابا عوض يدلف نحو الداخل ، فتنفست الصعداء ، واستدارت عائدة نحو المطبخ ، وهي تهمس لنفسها :

ـ الحمد لله على الستر ... الرجل سند البيت ، ربي يمد بعمره.

بينما تابع ابو عوض سيره نحو غرفته ، بطيء الخطوات ، يتوكأ على عصاه بكلال ظاهر ، وقد ازدادت انحناءة ظهره ، كمن ابهظه حمل ثقيل .

كانت ام عوض قد الفت هذا الوجوم يمد رواقه على دارها . ولم تحاول قط ان تعكره بعتب او شكوى ، لانها ، كمعظم نساء الشرق ، وخاصة نساء الريف ، لا تملك حق الشكوى من الرجل.

وثمة شيء آخر كان يلجم لسانها عن العتب والشكوى ، ويزيد من وطأة الصمت المخيم فوق الدار ...

شيء ثقيل مر ، ما تنفك تناضل لاستدفاع ذكراه عن خواطرها ، كلما المت بها ذكراه ...

كانت وحيدة ابويها ، وكانت صغيرة حين انقطع خبزها من بيت ابويها ، واتصل في هذه الدار .

لا تذكر من هذه المرحلة الا ان بعض النساء احطن بهـــا ،

فمشطن شعرها ، وطلين وجهها بمسحوق ناعم ابيض ، ورسمن فوق حاجبيها خطين اسودين ، ثم اركبنها حصانا وقادهـا الموكب الى قرية بعيدة وهم يطلقون حولها الرصاص .

لكم خافت هذا الرجل الغريب في اول ليلة ، ولكنهـا في الصباح ، لم تنكره ، بل شعرت بدافع يهيب بها ان تمسح له صرمايته الحمراء الجديدة ، وتضعها عند قدميه .

ولم تلبث ان سارت حياتها هادئة رتيبة ، يملأها ولدها الوحيد عوض بشبابه الذي اكتمل وازدهر بالقوة والعبق ، حتى كان يوم ، فاذا كل شيء يتهاوى كقباب الطين عبثت بها قدم طفل عفريت .

كل شيء : الهناءة والامل . . وارتفاع الرأس .

في ذلك اليوم الاسود من ذات عام بعيد . . هجر عوض القرية يلحقه العار ، وطواه المجهول في اعماقه ، فلا خبر عنه ولا اشارة ، سوى نتف من شائعات لا تبل الريق . .

وانطوت منذئذ ام عوض على شعور يشبه الخوف ، لم يلبث ان بهت ثم انقشع مع مرور الزمن .

ولكنه انبعث اول من امس كالميت يقوم من قبره ، حين برز من صميم المجهول وجه ولدها عوض . .

اي نعم . هكذا بكل بساطة دفع الباب ودخل ، كأنه لم يغب عن الدار تسعاً من السنوات ، بل غاب هذه الساعات القليلة التي كان يستغرقها عمله في الحقل . .

لشد ما اثرت فيها نظراته الذاهلة ، ووجهه الذي تخدد وتجعد . .

ولكنه جاء اخيراً سليما معافى ، فاندفعت نحوه بكل اشواقها ،

واحتضنته ، وغيبت وجهها في صدره ، وراحت تتشمم رائحته المالحه ، دون ان تأبه بتلك النظرة الخاطفة التي تبادلها الاب والابن، واشتبكا بها كسيفين ماضيين ، في حدهما احد امرين : قاتل او مقتول ..

وما عدا تلك الجفوة القائمة التي كانت ترين على الرجل وفتاه ، كلما ضمتهما جدران الدار ، فان الحياة بالنسبة لام عوض اصبحت مقبولة ، حتى لقد ظنت ان الدنيا هادنتها بعد حرب ، مما بعث في نفسها الامل بعودة المياه الى مجاريها بين الاب وابنه ، ومحو ذكرى ذلك اليوم المشؤوم من خاطر الاب .. لا سيما وان الولد وحيده ، وليس له من اعوامه السبعين ان يأمل في ذرية سواه .

كل ما كان يحيرها ان ابا عوض كان فماً يأكل ولا يحكي.

لم يكن لينطق بكلمة تفصح عما يجول في خاطره من غضب او رضى . كان يدخل الدار في سكينة وتوجس ويغادرها على هذه الحال نفسها فلا يدل على ايابه وذهابه سوى صوت عصاه ذي الطرقات الرتيبة على حصى الباحة .

وكانت عودة عوض المفاجئة ، مثاراً لدهشة القرية باجمعها ، فاعادت الى الاذان ، همسة قديمة مخيفة ، تخافتت حيناً من الزمن ، ثم غاضت :

الخائن .. ابو الخائن ، ام الخائن ..

لكم قرعت هذه الهمسة الهائلة مسمع الام ولكم قاست من وقعها ، ومن معناها ، ومن ذكراها .

وها هي تعود ، فتقفز من صميم الماضي ذكريات ايام رهيبة ،

كئيبة ، حين كان « جبل الزاوية » شعلة من نار وحملات الفرنسيين المحتلين ، تتلاحق على قراه باستمرار فتحرق الزرع وتثكل الامهات وتهتصر غصون الشباب وتهتك الاعراض..

كان فتيان القرية حينئذ يلوذون بالصخور المنيعة ، ويصبون من خلفها حمم النار على الاعداء ..وكانت النساء تخبز الخبز وتحمل الماء والذخيرة الى الثائرين .

القرية شعلة من نار وحقد ، ما عدا عوض ، فأنه في دنيا غير دنيا القرية .

كان يلوب حول وطفا .. سمراء القرية الثائرة ، ذات الجمال الغاضب التي يسمونها ، اخت الرجال . ويلازمها حيثما سارت وحيث يتلامح وجهها ذو الغضبة اللاهبة : في الدروب وقرب النبع ، وعلى تخوم الحقول ، وقرب نافذتها حين تأوي الى مضجعها..

لقد كانت فاتنة القرية حقاً ، فلا تكاد تبرز من خدرها ، بقامتها الملتفة ، وصدرها الطري السمين ، حتى تمصمص النساء بشفاههن ، ويهمسن : اسم الله الحلو حلو ولو قام من النوم والبشع بشع ولو تغندر دوم ..

اما الرجال ، فقد كانوا يغضون من ابصارهم ، كلما برزت ، رغم نار الاشتهاء التي تصفر في قلوبهم ، وتكوي حباتها . ذلك انها خطيبة منصور وعلى اسمه منذ ان كانا صبيين ، يحبوان على اربع كصغار القطط ..

وخيل الى عوض ان الجدار القائم بينه وبين وطفا قد آذن بالانهيار حين اختفي منصور في شعاب الجبل ، واضعاً دمه على

كفه ، شأن بقية رفاقه الثائرين ..

وشعر انه قمين باجتذابها اليه ذات يوم ، مهما طال ، رغم حمرة الحماسة التي كانت تلتمع في وجهها كلما ذكرت منصوراً ، او نقلت شيئاً من حكايته مع جماعة الفرنج.

ولكن احلامه تهاوت كأوراق الخريف حين ترامى اليه ان وطفى تجتمع الى منصور في كل ليلة رغم ستار الحديد والنار الذي ضربه الفرنسيون حول المنطقة ..

ولم تلبث خيبته ان تحولت الى حقد طاغ ملأ نفسه وملك عليه حواسه حتى افقده التمييز بين الاشياء .

واستيقظت القرية ذات صباح ، فاذا الجنود الفرنسيون والسنغال والمغاربة يسدون دروب القرية ومسالكها،ويتعنقدون في الساحات وفوق اسطحة الاكواخ .

وسرت وقتئذ شائعة ، ان خائناً من سكان القرية قد عرف بتلك الزيارات الخفيه الليلية التي كان يقوم بها الثوار بين الحين والاخر . وجرى على الالسنة اسم عوض ، فصمت بعض الناس، وهز اخرون رؤسهم مستنكرين ، غير مصدقين ، ذلك ان اباه .. ابو عوض ، شيخ الشباب سابقا ، وسبع السبنبع دائما . فمن غير الممكن ان يكون اباً لخائن مهما كانت الدوافع .

لقد شهدت القرية في ذلك اليوم العصيب مأساة دامية لا تزال ذكراها ماثلة في الخواطر.

كان عدد من الفتيان مقيداً بالحبال ، بعضهم الى بعض ، في خط واحد كأنهم جمال القافلة . ومن حولهم النساء والاطفال

والشيوخ ، يرين عليهم وجوم حزين مترقب يحطم الاعصاب .

وكان في وسط الساحة ضابط صغير الجسم ميت الملامح كالجرذ المخنوق ، وحوله نطاق من جنود يقفون كالخشب المسندة ، وقد اشرعوا حرابهم الى اعلى كأنهم يتحدون السماء .

وكان منصور مربوطاً الى السلسلة بين الفتيان ، كأنه الاسد الحبيس ، تنطق سماته بالثورة والحقد والقهر ، ولكنه يبذل جهده لمناضلة اعصابه وامتلاكها بالهدوء والمصابرة .

واخذ الضابط يروح ويجيء امام جدار الناس بخطوات متكاسلة مستمتعا باهميته التي فرضها على هذه القرية العاصية ..

ولم يلبث ان توقف على حين غرة ، منتصب القامة ، متعاليا كرأس العليقة واخذ ينقر على جزمته بطرف كرباجه ، شأن سلاطين المواقف العصيبة حين يهمون بابرام امر عظيم، ثم قال يخاطب الحضور كلمة كلمة كأنه يستقطر خطابه بالقطارة :

— سمع .. ما عندي غير مهلة خمس دقائق لتدلوني على منصور .. خمس دقائق وبس .

قال ذلك وحسر عن كمه بحركة متعالية وراح ينظر في ساعته ...

واخذت الثواني تمر ثقيلة متباطئة في هـــذه الحلقة الضيقة من ارض القرية ، بينما الحياة تمتد عبرها وتوشوش ، في خرير ساقية ، وزقزقة عصفور ، ولغو طفل ، وخوار بقرة يترامى من بعيد ..

ومضت الدقائق الخمس كأنها دهر ، لم ينبس خلالها احد بكلمة .

فعاد الضابط يقول ، وقد حاول ان يكسب قسماته سمت

الناصح الامين :

– سمع يا جماعة : آخرة العناد لاش . والعود اليابس ، طق ، ينكسر . كونوا عاقلين ، وافتدوا العشرة بواحد ..

ولكن احداً من الحضور لم يطرف له رمش نحو المكان الذي يقف فيه منصور ، وعادت الدقائق تمر متباطئة ، كأثقل ما تنقضي اعوام الجدب والالم والعـــذاب ، مات خلالها الآباء والامهات والاخوات الف ميتة وانتقل ثقل الاجسام من ساق الى ساق مرة في كل ثانية ، دون ان يتغير شيء من الموقف الآخر .

قال الضابط وهو يدلف نحو احد الشيوخ .

ما رأيك يا عجوز ؟ قل .. انطقها .. هل معهم حق بهـــذا العناد ؟.. تململ الشيخ قليلاً ، واخذ ينكت التراب برأس عصاه ، ثم قال بدهشة ساذجة :

– عجيبة ..! هل عندك غير الموجود ؟

فجن جنون الضابط لهذا البرود الصارم ، وهجم على الشيخ بغضب مجنون ، يدفعه ويركله بعصبية فائرة ، ثم لطمه بجماع قبضته لطمة هائلة ، تلقاها الشيخ بصبر عجيب ، وراح يلعق خيط الدم الذي اخذ يتخلل لحيته الفضية، حتى اذا امتلأ به فمه . تفله في وجه الضابط بصقة حمراء انطلقت كالرصاصة ثم رفع رأسه بهدوء ينتظر قدره .

ولكن الضابط تلقي هذه الاهانة صابراً ، بوداعة الوحش اذ يتربص بفريسته ، ويرقب عبثها باستعلاء القادر على وقفه حين يشاء واستدار نحو الجمع ، نحو الجدار الصامت من الناس واخذ يحدق

الى الوجوه واحداً بعد الاخر فلما وقعت عيناه على عوض ، توقف واستأنى وشاعت في وجهه ابتسامة باهتـة اشبه بالتكشيرة ، ثم ناداه بتحبب اصفر :

ـ تعال يا بني .

تسمر عوض لحظة ازاء هذه المفاجأة ، ولكنه تقدم تحت وطأة النظرة الكاسحة التي واجهته ، بينما احدقت به ابصار القوم كالاسنة المشرعة .

قال الضابط :

ـ قل يا ابني . انت اعقلهم دون شك .. بصراحة .. اين منصور من هؤلاء الكلاب ؟

كانت الدنيا تدور كالطاحونة السحرية ، ومئات الصور قد اختلطت في عيني عوض . كل شيء يبدو باهتاً ثقيلاً في نظره ، حتى لكأن الواقع قد استحال بلحظة خاطفة الى كابوس . وخيل اليه انه لمح وطفا تبصق ، وامه تولول ، واباه يضرب الارض بعقاله ..

واستطرد الضابط :

ـ اجب .. كلمة واحدة ، ولا تخش احداً من هؤلاء الحمير .

فلما لم يحر عوض بكلمة ، اضاف الضابط قائلا ، بلهجة من اسقط بيده :

ـ طيب يا ابني انت حر .. لا عليك ، فنحن ذاهبون اقلع شوكك بيديك اذا قدرت

قال ذلك ، واستدار نحو جنوده كأنما يهم بالقاء اوامر جديدة

بينما سرت في محيط القوم همهمة عريضة ، كالموجة العنيدة .

وكان ابو عوض يقف معلق الانفاس ، يستحم بعرقه خجلا وعاراً ، وقد تسمر نظره عند شفتي وحيده ، غير مصدق ان هذا الفتى الواقف في منتصف الساحة هو من دمه ولحمه .

ولم تطل هذه الفترة العصيبة من الصمت الا قليلا ، اذ قطعها عوض بصوت مرتعش قائلا وهو يشير نحو منصور : ذلك هو يا سيدي ، فندت عن الكتلة البشرية صرخة مدوية واعولت النساء وتشبث الاطفال بامهاتهم ، بينما اخذت الحلقة المستديرة بعوض تضيق شيئاً فشيئاً كالانشوطة حول عنق المحكوم عليه بالاعدام . ولكن الجنود بادروا بامر من ضابطهم القصير ذي الملامح الميتة الى تفريق الناس بمؤخرات البنادق ، ثم هرع جنديان نحو منصور ، ففصلاه عن السلسلة وجراه الى وسط الساحة ..

وفي هدوء غريب . نتر الضابط مسدسه وافرغ رصاصاته في رأس منصور .

لم يبت عوض تلك الليلة في القرية ، بل تبخر منها باسرع من لمح البصر وتركها متشحة بالسواد ، تمضغ الحقد والقهر ، وتشرق بالدموع .

فلما اصبح الصباح ، شوهد ابو عوض يسير نحو حقله ثقيل الخطو محدودب الظهر ، يعتمر بالاعدامية . وهي كوفية بدون عقال ، يتميز بها صاحب الثأر في القرى ، فلا تفارقه الا بعد ان يثأر لنفسه .

●

وتصرمت سنوات على هذا اليوم دون ان يخرج خلالها ابو عوض

عن انطوائه الصامت على نفسه .

كان يتجنب اهل القرية ويتجنبونه ، ويمر بالجميع كالطيف الساهم لا يبدي ولا يعيد . وقد سارت حياته بين العمل طوال النهار في ارضه ، والايواء مساء الى داره لا يفارقها الا مع الفجر .

هكذا تصرمت الايام ثقيلة باردة كأقسى ما تتصرم على رجل يعيش منبوذاً ، حتى من رفاقه القدامى الذين حمل واياهم السلاح فوق ثلوج القفقاس وفوق شعاب جناق قلعة .

كان هؤلاء يتجنبونه عامدين ، ويشيحون بوجوههم حين يلتقونه ، او يزيدها احدهم فيبصق على الارض بطريقة خاصة لا تخفى على ابي عوض ..

وقد عصف الحقد يوما بأحد الموتورين ، فاعتدى على ارضه ، وقطع بعض اشجارها ، فضلا عن عديد المحاولات لاحراق محصوله من القمح والشعير .

ولكن ابا عوض لاذ بالصبر على هذا الاذى ، فلم يرفع عقيرته بشكوى ، ولم يستنجد بحكومة ، بل لزم الصمت ، ذلك انه كان عارفاً بمشاعر قومه ، شاعراً ان معهم الحق فيما ينطوون عليه من موجدة والم ، يلازمه الاعتقاد في انه يستحق اكثر من ذلك . يستحق الاحراق حياً . ولكم تمنى لو ان يداً رحيمة من بني قومه تجود عليه برصاصة فتنقذه مما هو فيه من عذاب وعار ، اهون منهما الموت .

وقد يصادف ان يلتقي احيانا بوطفا ، تحيط بمحياها الابلج هالة قاتمة من وشاحها الاسود الحزين ، فيتوقف لحظة كمن يتوسل

اليها ان تسمع له كلمة ، ولكنها كانت في كل مرة تشيح عنه بوجه متحجر ، لا اثر فيه لموجدة او احتقار ، ذلك ان احزانها كانت اقوى من الموجدة والاحتقار ..

ولكم خطر لابي عوض وهو يرمقها دامع العينين ، يعتصر قلبه العذاب والخجل ، ان ينزح عن القرية الى سواها من بلاد الله ، لو لا ان حب الوطن قتال كما كان يقول ، ولو لا ان الشجاعة لا تمده بالقدرة على فراق ارض حبيبة ، ما في ترابها ذرة لم تسق بعرقه وليس في جوانبها ركن الا فيه ذكرى من طفولته العابثة او شبابه اللاهي ، او شيخوخته التي تقتات بالذكريات .

ولم يلبث مرور السنوات ان اسدل على مأساة منصور ظلّاً خفيفاً من النسيان ، كفلت الحياة المتواترة ان تسبغه شيئاً فشيئاً على ابناء القرية ما عدا قليلين ، ممن حفرت المأساة في نفوسهم اخاديد بالغة العمق ، لا يردمها مرور الايام ، وكر السنوات .

وكان ابو عوض من هؤلاء رغم ما يبدو من غرابة هذه الحقيقة فقد ظل على انزوائه وانطوائه وتقشفه ، فلم يقحم نفسه بفرح ، ولم يزر احداً في ترح ، ولم يظهر بثوب جديد لا في جمعه ولا في عيد ، وظلت تلازمه الاعدامية حتى اصبحت شعاره ، مما اضفي على صبره العجيب لوناً من بطولة الشهداء ، محت بتماسكها وجلدها وسكينتها ما ناله من عار في خيانة ولده ، واخرجته من هذه المأساة الحاطمة بريئا نقياً لا تشوب صفحته شائبة . فاخذت تلقى عليه بعض التحايا ، من الاقرباء اولا ، ثم من بعض الاصدقاء ، ثم من الجميع ، وما لبث القوم ان افسحوا له مكاناً في ساحة القرية حيث يتحلقون في

الليالي القمراء حول البئر ، يسمرون ويضحكون ، مما اعاد شيئاً من البهجة الى نفسه ، واشاع فيها الرضى رغم بعض المنغصات التي تأتي احياناً بغير قصد ، على جناح ذكرى يستعيدها متحدث ثم يقطعها فجأه حين يفطن الى وجود ابي عوض بين السامرين .

لكم احس الرجل بالتعاسة لهذا اللون الفاجع من الشفقة ، ولكم تمنى في احيان ، لو ان الارض تنشق وتبتلعه .

ومع ذلك فان الماضي قد تولى بدمائه ودموعه ، وكادت معالمه تنطمس من الاذهان ، واوشك ابو عوض ان يستأنف شيخوخة هادئة ، هانئة لولا ان مآسي الضمائر لا تختتم بسهولة .

كان لا بد ان يطرق الباب يوما ، وبعد تسع سنوات ، وان يقف عوض بالباب ، بلحمه وعظمه وسماته .

لقد انبعث الماضي على غير انتظار ، هكذا دفعة واحدة لم يتغير في عوض شيء سوى عارضيه اللذين التمعت فيهما الشعرات البيض .

وكان عوض يرتدي الملابس الفرنجية : السترة والبنطلون ، وفوقهما الطربوش ، وفي قدميه حذاء سميك من المطاط . وقد ظل ابو عوض فترة غير قصيرة ، يحاول خلالها ان يستجمع شتات ذهنه دون فائدة ، بينما تسمرت ام عوض في مكانها كالخشبة . وظلت القلوب الثلاثة نهباً لعديد المشاعر المتناقضة خلال وهلة هذا اللقاء ، وكاد الاب والابن يتعانقان حين تلاقت اعينهما في اللحظات الاولى ، لولا ان وقف الماضي بينهما كالصخرة الهائلة ، فاستدار ابو عوض صامتاً ، واغلق على نفسه باب غرفته ، بينما اندفعت ام

عوض نحو وحيدها مسوقة بلهفة اقوى من الخوف والعار .

ومن خلال سيل الاسئلة الدافقة المتلاحقة ، عرفت من خبر ولدها ما كان خافياً طوال تسع سنوات . عرفت انه جاع وعري ونام على الارض والتحف بالسماء . وعرفت انه تقلب بين الوان من الكدح المرهق حتى استطاع ان يفتح دكاناً صغيراً لبيع الخضار والفاكهة في بيروت .

•

ولم يلبث خبر عودة الفتى ان شاع وذاع في انحاء القرية .. فاستيقظت الاحقاد والذكريات المرة ، وعاد منزل ابي عوض كما كان قبل تسع سنوات ، كأنه كهف الشيطان ، لا بد لمن يمر به ان يقذف بحجر او ببصقة ..

ولم تعلق ام عوض على هذه الحال الا بقولها : الصبر طيب . وكانت تعتقد ان كل ارض ستشرب ماءها ، ولا بد ان يحن الدم يوماً الى الدم . وقد تستطيع ان تقنع زوجها وولدها بالنزوح الى بيروت بعيداً عن ارض الحقد والكره والانتقام .. ولعلها استيقظت هذا الصباح على شيء من هذا الامل ، وزاد من املها ان رأت ابا عوض يخرج عن عزلته ويخالط مكان ولده ، وتوقعت في البدء ان تنشب معركة بين الشيخ والفتى لا يعلم مداها الا الله ولكنها تنفست الصعداء حين ســـار الحديث بينهما حول الارض والعناية بها ، وما الى ذلك مما يجري عادة بين اصحاب المصلحة المشتركة ..

لذلك شاءت ان تحتفل هذا النهار بما سمته : عودة الميـــاه الى مجاريها ، فقامت تعد صنفاً من الحلوى يتـألف من عجينة محشوة بالجوز واللوز تعلم ان الاب والابن يلتقيان على ايثاره بين اصناف الحلوى . واضحكتها ذكرى قديمة ، حين كانت تقوم الى اعداد هذا الصنف في الماضي ، فيدور الرجل حول المقلاة منشداً : في البطن بلوى لا يشفيها الا الحلوى .

غير انها شعرت ان ضحكتها ليست من الاعماق بل من مظاهر القلب ، فقطعت لحناً كانت تلغو به ، وقامت الى ساحة الدار ، وقد غمرها خوف مفاجيء عصف حتى ببقية الامل التي كانت تحتفظ بها للايام السود .

غير انها احست بالامان حين سمعت المفتاح يدور في قفل الباب ورأت ابا عوض يدلف نحو البـــاحة بخطواته البطيئة الرتيبة ، فاستدارت عائدة نحو المطبخ ، وهي تلعن ابليس اللعين الذي يوسوس باوهام بعيدة عن التصديق .

ولكنها لم تلبث ان اطرقت برهة ، وقد رابها ان ابا عوض كان متجهم الوجه ، وان انحناءة ظهره كانت اكثر من المعتاد ، فتساءلت في نفسها لهيفة :

ــ اين عوض ؟..

وما كادت المرأة تلقي في سريرتها هذا السؤال حتى احست بشيء يقبض على صدرها وينشب فيه ما يشبه المخالب .

فقفزت من مكانها الى باحة الدار ،وهي تصرخ مولولة ، دون ان تدرك سبباً لما طرأ عليهـــا وغير من حالها ، ثم هرعت الى غرفة

زوجها فراعها ان بقجة الملابس منتثرة على القاطع ، وليس في الغرفة احد فاندفعت تلتف بملاءتها كيفما اتفق ، ثم غادرت الدار على عجل كأنها تستبق الاقدار لدفع كارثة مداهمة .

•

في هذا الوقت نفسه كان ابو عوض يدلف نحو ساحة القرية ، بطيء الخطا يتوكأ على عصاه وينقر بها الحصى .

ولم يكد يشارف مجلس القوم حتى ارتفعت نحوه العيون تنقب جسمه بغير شفقة ، وتمسح بالفضول والدهشة على كل شيء فيه ، على : الحذاء الاحمر الجديد ، وسروال الجوخ ذي المطرزات البديعة ، والصدار المقصب ذي الاكمام الواسعة ، وكوفية الكسروان ذات الشرابات الحريرية ، وفوقها ، اي نعم فوقهـــا تماماً ، العقال الاسود ذو العقفة الانيقة .

فلما اخذ لنفسه مكاناً بين القوم ، بادر بعض الجلوس الى مغادرة المكان ، وبقي آخرون بدافع من الفضول او الرغبة في الشكس . واتلع شيخ ابرش العينين عنقه فقال متسائلا في سخرية :

– مين يا جماعة ؟.

فاجابه كهل يتكلم من انفه :

– احم ... يقطع الذوق !.

فقال الشيخ يصطنع الدهشة :

– مين .. ابو عوض ؟

– بعينه .. وما شاء الله مثل العريس ليلة الدخلة ..

ولم يجب ابو عوض بكلمة ، بل اخرج علبـة التبغ ، واخذ يبلل اصابعه بريقه ، هادئاً متأنياً لا يطرف له رمش .

وفي نفس اللحظة ، اقبل من طرف الساحة غلام في العاشرة مدهون الرأس بالزيت من اثر قرعة فصاح :

ـ الحقوا يا جماعة . عوض قتيل عند الدرب الشرقي .

فندت عن الحضور صرخة مكتومة، وتحولت الاعين في حركة واحدة نحو ابي عوض ، ترمق عقـــاله الاسود ذا العقفة الانيقة باعجاب واعتبار ، غير ان الرجل كان بارد التقاطيع لا ينم وجهه عن اسى او عن رضى ، بل كان يتابع ســـاكناً لف سيكارته باصابع ثابتة ..

الموكب الاسود

لم يكن احد سواي يدرك في تلك الليلة سر العملاق الاسود الذي ينهض جامداً وسط الحركة ، وسر الساعة الرابعة الا ربعاً التي لم تشر اليها ساعة البلدية بعد ...

ولعل من السخريات القاسية ان لا يهمس في قلبي في تلك الليلة ، وانا في موقفي عند عمود النور القائم على طرف بردى ، ودخان سيكارتي يتخلل خيوط المطر ، الا صوته هو كما سمعته منذ اشهر يهيب بي ان انتصر على الضعف ، بقوله : « قم .. ستشفى ونعيش كما يطيب لنا » .

كان وجهه يتألق يومئذ بتلك الاشراقة التي تصطبغ بها الكائنات في احيان مفاجئة ، فنرى من خلالها اعزاءنا على ابدع صورة واتم صحة ، واكمل قوة ، فلا نملك اذ نراهم الا ان نهتف بهم ونحن بين الدهشة والغبطة : « فظاعة شو حليانين » فقد كان بادي البشاشة ، ترسم بذلته الانيقة انتفاخات القوة والبأس من عضلاته ، وتوضح مواضع الانساق من قامته الاسبارطية الجميلة ، وكانت خصلات

شعره الخرنوبي مبعثرة تغري الانامل الرقيقه بالمسح عليهـــا ، وتمسيدها .. وكان من الثقة بنفسه بحيث يملأ الآخرين املا وثقة .
ثمة شعرت ان المرض لم يكن سوى شحاذ ثقيل طرده صديقي بكلمة، واني كنت سخيفاً اذ سمحت لهذا الشحاذ ان يقف ببابي ويزحف الى فراشي ويأخذ من جيبي وقلبي ما يريد فابتسمت لهذه الخواطر، واتسعت بسمتي حين مرقت في ذهني صورة طفولتنا ، حين كنا نذرع الشوارع معاً خلف لا شيء ، وادهشني من علي ان الزمن لم يبدل شيئاً من سمات طفولته فهو نفسه جرأة وثقة ، منذ ان كان يجرني وراءه الى مغامرات السطو على دجاج الجيران ... ألم يرسم لحياته طريق الغلبة منذ معركة المصنع ؟

لم نكن حينئذ سوى يتيمين ممن يطلق عليهم بعض الناس : الكلاب الضالة .. فلا بيت يلمنا على التعاطف ، ولا مدرسة تضمنا على التعاون ، ولا اهل سوى امي وامه ، وكلاهمـا سحنة غضنها الحرمان والألم ، وقبضة اعجفها الكدح في شغل اطباق القش لتأمين لقمة الخبز التي لم نحمد الله على شيء سواها .

وذات يوم رأينا نفسينا نلف في البراري المحيطة ببلدتنا على غير هدى ، بعد ان شهدنا ، ونحن نبكي مع عدد قليل من نسوة الحارة ، جثة امـه محمولة على بعض الاكتاف الى حيث لا يعود احد ..

كان الوقت عصراً ولخطواتنـــا وقع مكتوم على الاوراق الشاحبة الرطبة ، وبين الاعشاب البرية تنتثر صفرة فاتحة تذكر بالعطش ..

وسوى عليّ خصلات من شعره الخرنوبي انحدرت على عينه ، وقال كمن يحدث نفسه :

– اخيراً ..

فرمقته بطرف عيني احمل له نظرة اشفاق انقلب الى اعجاب حين رأيته يكبر سنوات في لحظات ، واني اصبحت منه كالطفل الى جانب رجل ...

في ذلك اليوم ارتبطت مصائرنا بعضها ببعض ، وولد بيننا شعور مشترك باننا ابناء طبقة واحد ليس لها من حياة الاحياء سوى الجوع والدموع .. والكدح .

وبدافع من تعقله الذي لابسه بعد وفاة امه ، بادر الى الالتحاق بمصنع صغير لحلج القن ، لم البث ان التحقت به بدوري ؛ فراراً من الوحدة ، او بدافع من رابطتي به او خلاصاً من لسان امي التي ما تنفك تقول لي : انني مثل ذكر النحل آكل الطعام واضيق المكان ..

وكنا نجلس الساعات الطوال فوق المحلجة ، في مكان قليل الاتساع ، ذي نوافذ ضيقة يطل منها النور على اعلى جدرانه ، وفي الفضاء غمامة من نشارة القطن نتنفسها بانتظام ، ونسعلها طوال الليل .

وكنا نمسك خلال هذه الساعات بعصي صغيرة ندفع بها القطن كومة في اثر اخرى نحو مشط الآلة الذي يعزل البذور عن كتلة الخيوط ، ولا ننفك نتلقى الصفعات من العمال الكبار الذين كانوا ينادوننا في لحظات غضبهم باولاد الكلب وابناء الـ ... ة .

وكان بين العمال الكبار رجل لا نعرف الا ان اسمه الفيلسوف: ربعة القامة ، اشقر ، لفمه الرقيق شكل ندبة السيف . يبدو كثير الصمت ، مستغرقاً في عمله ، فاذا تكلم تحلق حوله العمال وهزوا رؤوسهم موافقين .

ولم نسمع رجلاً قط من جماعتنا يتكلم بمثل طريقتـــه السهلة الواضحة المقنعة . وكان وجوده يضفي على ما حوله جواً من الحب والرهبة .. وقد خرجنا من حديثه الاول بنتيجة عجيبة هي اننا اولاد طيبون ، ولسنا اشراراً كما كان يخيل الينا .

وكان الفيلسوف يختص فرقتنا نحن الاولاد بمعظم عنايته ، فيمنع زملاءه الكبار من ضربنـا ، ويسأل عن غائبنا ، ويفض مشكلاتنا ، وينوب عنا امام صاحب المصنع ، ويلقننا بعد الفراغ من العمل مبادىء القراءة والكتابة ..

وفي ذات يوم دخل علينا صاحب المصنع ، وبعد ان جاس خلال المكان ببصره ، توقف عند علي ، ثم اخذ يروزه ويقيسه طولا وعرضاً والفتى لا يلتفت اليه .. وبعد خروجه بقليل ، كان يحتل مكان علي فوق المحلجة صبي آخر ، في العاشرة من عمره ، له وجه القطة المذعورة ، وفي رأسه آثار قرعة قديمة .. بينما انتقل علي الى قسم العتالة ..

والتقينا في المساء قرب باب المصنع الخارجي ، وكانت ثيابه ملتصقة بجسمه كأنه خارج لتوه من تحت دوش ، ولم يكدر يهدر محرك السيارة بعد امتلائها بالقطن وتمضي بحمولتها حتى رأيته ينقض بمثل لمح البصر على عامل من الكبار فيلطمه في وجه ، ثم يأخذه

من ياقته ويدفعه بقدمه وراءه برشاقة بارعة فاذا الرجل ينهار كتلة جامدة على الارض ..

وقبل ان يبادر العمال الى التفريق بين المتخاصمين كان علي قد بلغ من غريمه ان افقده الرشد ، بعد ان اسال الدماء من انفه وفمه ، ثم وقف بعيداً بين المحيطين به يلهث كالجواد المتعب وعيونه تقدح شرراً ، وفي وجهه اشراقة انتصار ملأتني اعجاباً ..

ولم يكد الخصم يستفيق لنفسه حتى اغرقه زملاؤه بعاصفة من الضحك وهتف احدهم قائلاً :

ـ قلنا لحميد الف مرة ما كل الطيور لحمها بيتنا كل ..

فلم يجب الرجل ، بل تسلل نحو باب المصنع ، بينما اخذ علي يمسح وجهه بطرف كمه ، ويحسر على جبينه الوضيء الخصلات الملتصقة به .

منذ ذلك اليوم شق علي طريقه ، بقبضته ، بين العمال الكبار ، رجلاً صغيراً ليس في وجهه سوى الزغب .

كان يوم المعركة نقطة تحول في حياة علي ، فأصبح بعده يصطنع سمت الكبار : يمشي بتثاقل ، ويضع قبضتيه في خاصرتيه وقدماه منفرجتان ، ويدخن ، ويبصق بين اللحظة والاخرى ، ويسب الدين ..

وذات يوم فاجأني بقوله ونحن في طريقنا الى المصنع :

ـ اسمع يا مصطفى .. ان حياتنا بنت كلب .. ما فيها عدالة اجتماعية ، فلم اجب بل رمقته بنظرة احترام ، لم اكن اختص بها سوى صديقنا « الفيلسوف » حين اسمعه يتحدث عن اشياء لا

افهمها ، ومنها هذا الشيء المسمى « عدالة اجتماعية »

وكان العمال على طول طريقنا يحثون خطواتهم كما نحثها ، وايديهم مضمومة كايدينا على « صرر الزوادة » بينما يسير في لصقنا اطفال وفتيان في مثل عمرنا ، صباح الوجوه ، يتلألئون نضارة ونظافة وايديهم مضمومة مثلنا ، ولكن على محفظات انيقة من الجلد اللامع .

في ذلك الصباح الذي لا انساه شعرت اني لست اقل من علي فهماً لمعنى ما سماه حينئذ « عدالة اجتماعية »

•

ظل المصنع دنيانا الصغيرة طوال سنتين بدأناهما مازحين ثم اصبحنا كادحين ، نعرق كالكبار ، ونقبض اجورنا كالصغار ..

وفي اثناء ذلك ، كانت الحياة تنمو فينا يوماً بعد يوم ، فأخذت سواعدنا تشتد وصوتنا يخشوشن ، واعباؤنا تتكاثر ..

وكان علي اسبقني الى الاكتمال فلم يعد يتحدث عن دجاج الجيران بل عن بنت صاحب المصنع ، وثروة الشعر التي تتموج على كتفيها ، ورقة اصابعها ، وبروز نهديها ..

ثم عن بسمة زعم انها خصته بها اثنا احدى زياراتها للمصنع ..

ولم اصدق حينئذ ، رغم ثقتي البالغة بعلي ، ان يكون جاداً فيما قاله عن قصة البسمة ، لانني أعرف بحدسي ان النظافة لا تبتسم للقذارة ، واننا من غير طينة صاحب المصنع وذريته .

ولم البث ان توزعتني دروب الحياة حين انقطع علي فجأة عن

المصنع ، ثم اختفى من الحارة تاركاً خلفه بعض القلوب الصغيرة التي ظلت امداً طويلاً تنتظره خلف الابواب كل صبـــاح وكل مساء ، حتى اذا امضها الانتظار انطوت على الوحشة والذكرى .

وانقضت على غيابه سنوات ، لم اقع له خلالهـا على اثر ، ولم يبلغني عنه خبر ... حتى كان مساء ، من اماسي الصيف ، كنت افترش الارض في ساحة الحارة مع بعض جيراني ، ندخن ونتثاءب ونرتقب طلوع النجم لنأوي الى مضاجعنا استعداداً لاصباح لا تتغير ، تبدأ بالشقاء والعناء ، وتنتهي بالاعيـاء ، فاذا بشاب يقبل من اول الحارة خلناه لاول وهلة احد الوجهاء ، فلمـا اصبح على كثب منا هتفت ، وهتف الحضور جميعاً : يه !! .. هذا علي ..

وقمنا اليه نتجـــاذبه ونعانقه ، ونتفحصه ونلمسه ، ولا نكتم دهشتنا من ظهوره المفاجيء الذي لا يشبهه الا غيابه المفـاجيء ، وهذا الثراء العريض الذي جعله كنجوم السينما ملاحة واناقة ..

قال لي حين ضمتنا جدران غرفتي القديمة التي لم يتغير منها شيء سوى خلوها من فراش امي :

ـ ستسافر معي ..

ولم اكن بحاجة الى كلمة اخرى تزيد عن هـذا العرض ، فقد كنت متعباً ، وكانت روحي بالغة انفي ، وكان لدي آمال مـا انفك اترقبها في الدرب الطويل الذي تمضي فيـــه السيارات نحو العاصمة ، والذي لم اسلكه قط ..

وجفاني النوم ليلتها ، حتى خيل الي ان الصبح في نهاية الدهر ، وكانت خواطري تطير مبعثرة هنا وهناك ، حيث نثرها حديث

علي .. اري السيارات الفارهة تمرق في الشوارع العريضة وتصخب في داخلها الضحكات ، والنساء رقيقات عطوفات ، يلبسن ما يبرز محاسنهن التي لم ابصرها ولا في الاحلام ..

كان حديث علي مغرياً معظم الليل حتى انني اخذت اتلمس موضع انتفاخة الثراء من جيبي الفارغ ..

وظل علي طوال الطريق يرقب دهشتي بكثير من السخرية العطوف ، فقد كنت بادي السعادة اكاد اصفق لكل مايصادفني، فلما بلغنا دمشق خيل الي انني مع علي بابا اركب بساط الريح . واجوس الفضاء فوق السبعة البحور وراء ست البدور ...

وادهشني ان يصبح علي على هذا القدر من التمدن . ولست اكتم انني شعرت بالصغار حين قارنت اناقته بخشونة ثيابي،ونعومة كفيه بآثار الكدح البادية في اصابعي.. وازدادت دهشتي حين بلغنا منزله فقد لمست وقتئذ لاول مرة نعومة الحرير في ستور النوافذ وشعرت بالراحة حين غصت في المقعد المخملي العريض ..

وامتدت بي احلام هذه الراحة حتى الصباح ..

لم ادرك في الايام الاولى لحياتي الجديدة سر هـــذا التحول الطارىء في حياة علي ولكنني امسكت باول الخيط ذات مساء ، اذ قال لي وهو يعقد حول عنقي ربطة انيقة :

سأكشف لك الليلة عن كنز ..

ثم حملتنا سيارة نحو منزل انيق يقع في شارع مستقيم عريض تمتد في وسطه حديقة دائمة الخضرة .. حيث استقبلتنا لدى الباب

صبية لم تقع عيني على ابدع منها ، تلقتنا ببشاشة وتلقاها علي بالعناق بعد ان دفعني دفعاً الى داخل الصالة .. ثم سمعت صوتا يهتف من الداخل : مين ؟. فردت الفتاة متضاحكة : الازعر ..

واضافت بعد ان نظرت نحوي : ورفيقه ..

فضحك الصوت ، وضحك علي .. ثم تلفت حوله مصطنعاً الفزع ، واسترق من الفتاة غفلة فربت على ردفها فاستدارت نحوه على عجل وبادرته بلطمة خفيفة على وجهه ،فضحك، وضحكت، وجاء على صوت القهقهة كهل سمين ، اصلع غليظ الشفتين حول عينيه هالة زرقاء ، وفي اسفل ذقنه غبغبة مترهلة ترتسم فيها عروق زرق عليها اثر موسى الحلاقة ..

ثم تحلقنا حول مائدة في وسط الصالة ، لم تلبث ان عمرت بالاقداح ، وباصناف المازة ..

وكان ظاهراً ان علاقة علي بالفتاة لا تخفى على الكهل ولعلي رأيت في نظراته واشاراته ما يؤيدانه انه يشجعها الى ابعد الحدود.

ورأيتني بعد ان زال الحرج الذي استشعرته في وهلة اللقاء الاولى استرق النظر الفاحص الى الفتاة .

كانت جميلة اجمل ما يكون الصبا الثائر الفائر .. ولكنها من نوع القطط المدللة في نعومتها المسلحة بالمخالب .. وقد تبدو لك في لحظة .. انها قطة فعلا تنحصر امانيها في حدود طراحة المخمل حيث تغمض عينيها وتحلم ، فاذا استفزها الضحك والدعاب غدت سافرة نافرة كالفرس الشموس ، اذ تنطلق عارية من السرج ، مقطوعة الزمام ، تشق المسافات بكتفها ، ورأسها مرفوع الى اعلى ...

تشعر الى قربها انها منك قريبة قريبة ، كأنهـا جسد يتصدى لك برغباته وافراحه ونعماه .. فاذا اقبلت عليها اصبحت بعيدة بعيدة، كالنجم ، تراه ولا تبلغ مداه .

ولكنها فيما ظهر لي في تلك الليلة ، كانت من علي كالخاتم من اصبعه يحركه كما يشاء ، وكان منها كالفحل الآسر الكاسر الذي يبث الرهبة والحب .

او هكذا خيل الي من خلال الكاس الثالثة ..

قال لي الكهل وهو يملأ قدحي مبتسما : أقريب علي ؟؟..

فأجبت : بل اخوه ..

فقال بين السرور والسخرية : — انتصرنا !

ثم التفت الى علي قائلًا :

— ما تقول لنا ان لك اخاً — اخزيت العين — قبضـــاي مثلك ؟!

فاستفاق علي لنفسه وكان مستغرقاً في حديث هامس مع الفتاة ، وقال ذاهلًا :

— آه ... مصطفى ... دون شك ، انه اخي ، ولو لم تلده امي ..

قال الكهل وهو يغمز نحوي :

— مناسبة طيبة . ايش رأيك ؟

فانتفض علي غاضباً وقال :

— لا .. دعنا منه . مصطفى ليس قد الحمل .. تماما وحياتك

ولم ادرك حينئذ معنى هذا الحوار الخاطف ، فكان سؤال

الكهل وعرضه ثم رفض علي وغضبه كأنما تدور حولي بلغة لا افهمها.

فلما عدنا الى منزل علي قلت له وانا اغوص في الفراش :

ـ ان الكهل لطيف ..

فاضاف علي :

ـ وابن كلب ..

ثم قال مستدركا :

ـ انه كنز يا مصطفى ، وانا مدين له بكل شيء . ولكنه فظيع ، فظيع جداً .. انه يشرب من دمي ، ولولا ناهد لشربت انا من دمه ..

واستطرد لاهثاً :

انني مطارد يا مصطفي .. منه ومن ابنته ومن آخرين .. ان الشغل على الحدود يشيب شعر الرأس .. وهو حياة الزفت بعينها

قلت في دهشة : التهريب ؟ فلم يجب ، بل اطفأ النور .

•

كانت ساحة المرجة اشبه بمحرقة ضخمة ينعقد في فضائها بخار الماء كأنه دخان الواقد ، ويكتنف جوانبها الظلام .

وفي ناحيتها الشمالية تنهض اخشاب سود كأنها العمالقة وفي وسطها حبل معقود تؤرجحه الريح ..

وكانت الجموع تسيل في الشوارع المؤدية الى الساحة ثم يقف عند الطوق الذي ضربه الجنود حولها ..

وعلى شرفات الفنادق تنعقد غمامة كثيفة من الناس ، خرجوا

من الامان والدفء الى الخوف والريح والمطر . وكانت ساعة ساعة البلدية تشير الى الثانية والنصف ، بينما يصعد دخان سيكارتي في الفضاء بتكاسل ويدور حول هالة النور المحيطة بالفانوس القائم على كتف بردى ..

ولم تلبث سيارة السجن السوداء ان مرقت من مدخل السنجقدار ثم استدارت نحو بناء العدلية العتيق ، حيث هرع لدي وقوفها عدد من رجال الدرك احاطوا بها ، واستقبلوا راكبها.

وما كاد علي يلمحني حتى توقف لحظة ، ثم تفل باشمئزاز وقال يخاطبني :

ـ باطل يا مصطفى .. هل جئت تتفرج علي .. لكم ابصق على رحمتك يا اخي ..

فاطرقت . وتفجر الدمع من عيني ، ولعلي اعترف الان بعد ان تعلمت من العاصمة اشياء كثيرة ، انني لم اشعر بجرمي في تلك اللحظة ، فما كنت لادرك حينئذ انني احد افراد الشعب السوري الذي نطق القاضي باسمه قائلاً :

ـ الاعدام شنقاً ! ولمن ؟ لاخي علي ..

ولم يلبث علي ان حار الى لون من الهدوء القاتم حين صرنا الى داخل مبنى العدل ..

ثم استغرقه الشرود فلم يحاول مرة ان يمسح دموعه من خديه.

وكان يبدو شاحباً ، ولكنه صارخ الفتنة كالعريس في ليلة زفافه ..

وخيل الي من خلال استغراقه وذهوله انني اقرا جميع الخواطر

التي يلغو بها .. فليس عجيباً وهو الان يسحبه المغيب خلفه ، ان لا يلتفت بكل الشغف الذي تمده به لحظاتـه الاخيرة ، الى اجمل سنوات العمر .

وكنت على يقين بان ابدع سنوات العمر بالنسبة اليه لم تكن في المنزل ذي الستائر الحمر الذي استرده الكهل منذ الليلة الاولى للقبض على علي ، ولا في الصالة ذات اللون الفستقي التي شهدت عناق الالفاظ والشفاه بين علي وناهد ولا في اية زاوية من زوايا دمشق البهيجة .. بل كانت هناك ، في بلدتنـــا الصغيرة ، خلف دجاجة ضالة من دجاجـات الجيران ، او فوق المحلجة في المصنع الصغير ، او في البراري يمسك بقضيب مكسور ينقر به الحصى ، ولخطوه وقع مكتوم على الاوراق الشاحبة الرطبة وحوله ، بين الاشجـــار ، وعلى الاعشاب الثرية ، تنتثر صفرة فاتحة تذكر بالعطش ..

ورفع علي رأسه فجأة وقال :

– ماء ..

فقدم له احد الجنود كأساً اخذ يرتشفها جرعة جرعة .

وكانت الغرفة الكائنة في نهاية الممشى الجانبي تعج بالقضـــاة والصحفيين والجنود .

وندت عن علي ضحكة هائلة حين سأله القـاضي عن وصيتة الاخيرة ، ثم اجاب بعد ان تلفت حواليه بمرارة :

– نظيفة والحمد لله ...لا وصية الا العفو الك ، والعـــافية لاخي هذا ..

قال ذلك واشار ناحيتي ، فاحدقت بي لدى اشارته العيون ، وامتلأ مسمعي بهمهمة لم ادرك سببها كأنها هدير العاصفة ..

لقد شهدت نهاية علي مرتين ، اولاهما كانت قبل اشهر ، حين شعرت به ذات ليلة يتكوم قربي في الفراش ..

كان خائفا مذعوراً يلوذ بي كطفل في حجر امه ، وسمعته يهمس الي في الظلام :

– انا انتهيت يا مصطفى ..

– لا تقولها ..

– بل قلتها وفعلتها ..

– ......

– ان الحكومة ورائي ..

– ......

– مالك ؟ الا تفهم معنى الحكومة ورائي ؟.

لم اجب على الفور ، بل قمت اتلمس ثيابي في الظلام ، ثم قلت له :

– قم .. لعلنا ندبرها ..

وقبل ان نتحرك خطوة واحدة كان النور يغمر الغرفة وبضعة مسدسات متجهة نحونا ، وصوت اجوف يأمرنا بالوقوف .

ولعلي شعرت ، بعد ان عرفت ان علياً اصبح قاتلا ، في عنقه دم خفيرين من خفراء الحدود ، ان الاقدار كانت تسخر بنا حين الهمته ان يهيب بي منذ ايام ، قبل رحلته الاخيرة الغامضة وكنت طريحاً في فراش المرض . قائلا :

ـ قم .. ستشفى ونعيش كما يطيب لنا ..

كان علي يرتجف كالريشة في مهب الريح وقد رسمت قامته نصف قوس ، وبدا كانه يحمل اثقال الارض .

وكان يدير في الحضور عينين زائغتين ، فلما استقر بصره علي تمتم بشقاء بالغ .

ـ خاطرك ..

فاستخرطت باكياً واندفعت نحوه ، ولكنني شعرت من خلال غيبوبتي ان مئات الايدي تقبض على عنقي وتمنعني من الحركة ..

ثم تلامح لي الموكب الشاحب يسير نحو الساحة ، والبنادق مشرعة تؤدي تحية الموت ..

واخذ علي يصعد في درج المنصة ، هادئاً جسوراً عارم الشباب ولم تفارقه شجاعته الفائقة الا حين تدلت الانشوطة امام عينيه واخذت الريح تؤرجحها كرقاص الساعة ..

كانت ساعة البلدية تقترب من الرابعة الا ربعا : وصوت من الساحة يتلو كلاما مكتوبا في ورقه ، والجموع تتدافع مشرئبة الاعناق نحو المشنقة .. وخواطري المبعثرة لا تستقر على حال ، فهي بين سيارة السجن ، والحبل ، وحبال الاراجيح التي يمرح عليها الاطفال او العشاق في الليالي القمراء ..

وكانت دمشق تغفو هاجعة وتنعقد في فضائها احلام النائمين .

وتصورت ساحة المرجة بعد ساعات حين ترتفع الشمس في قبة الفضاء ، ويتوارى كل شيء : الناس الى حيث تناديهم اسباب

الحياة ، والجثة الى حيث يعبث فيها الدود ، والاخشاب السود الى مكانها من سجن القلعة .

ثم تحتل سيارات التاكسي مكانها من الساحة بدل العملاق الاسود ، ولا تلبث الاكتاف الكثيرة المزدحمة ان تندفع من جديد في معركة العيش ، قاتلة او مقتولة ..

اليتيم ...

كان الوقت مساء ، وبيني وبين بلدتي اربعمائه كيلو متر ، ولكنني في تلك اللحظة لم اكن بعيداً عنها .. كنت فيها .. في بيتنا ذي الباب المصفح بالتوتيـــاء ، المطرز بالمسامير تتوامى الى سمعي من خلال ضجة المساء في شارع فؤاد الاول ، اصوات اولاد حارتنا وهم يتصايحون ويتشاتمون ثم يتصـالحون ويستأنفون لعبهم الذي لا ينقطع في معظم ساعات النهار ..

كنت اقف وحيداً امام سينما الاهرام احدق في الوجوه ولا اراها .. وتمر بي المناكب فتزحمني، او تتوقاني ، وضحكات مرحة سعيدة ترن هنا وهنالك ، كالاجراس الفضيـة ، وطقس تشرين يمسح على الوجنات برطوبة منعشة ، وكأن افراح المساء قد سرت الى جرس الترام، فمضى السائق يدلله بايقاع موزون على الوحدة.. وخيل الي ان شيئاً في نفسي يغني :

ـ بكرة السفر ..

لم اكن قبل عام استشعر هذا الشوق الى بلدتي .. فهي جمود

وركود كما كنت اسميها .

وكانت ايام الفرص السنوية تسبب لي الضيق لانها تضطرني الى مغادرة العاصمة ، الى حيث الجمود والركود .. وبضعة وجوه لا تتغير في الصباح ولا في المساء .. تمضي في حياتها على رتابة تطلع الروح ، ولولا مجلس ابي الذي ينعقد في كل ليلة على سمر وحديث ونوادر وشرب قهوة ، ويجمع بعض اصحابه ، لكان خيراً من اجازتي ان ازج في السجن ..

وكان ابي يعرف بي هذه المشاعر ، فاذا انفردنا ، وران الصمت ، رفع رأسه عن كتابه الاصفر ورمقني من خلال نظارتيه بحنان يشوبه الزهو ، وقال بلهجة يحاول دائماً ان يضفي عليها شيئاً من السخرية :

ـ ابن العاصمة غير .. لنا الله يا ابني !

فاطرق معترفاً بصدق حدسه ، فيمضي قائلا :

ـ معك حق يا ابني .. لا وجوهنا حلوة ولا بساطنا ناعم ..

كانت مدرستي الداخلية هي كل دنياي .. يستهويني كل شيء فيها : السجعات المصنوعة من استاذ الادب ، وقامة المدير التي تطاول الباب ومسحة القسوة التي يفضحها حنانه .. ورغوة الصابون نتراشق بها في الصباح ، وخاصة اصباح الجمعة .. والجولات الليلة في ايام الهرب من النظام ..

كنا نرابط احياناً امام احدى دور السينما لنوزع النياشين والالقاب على مخلوقات الله .. فلهذه السمراء وسام الاستحقاق ، ولأم البلوز الاصفر نيشان الكمال مع السعف ، وكنا نقلدهن

ايضا بعض المراتب العسكرية ، ويا ما اكثر الماريشالات في ذلك الزمن ..

لقد كنا شيئاً من الطفولة ، وشيئاً من الرجولة.. نهزل كثيراً ولا ننقطع في الحالين عن الايمان بانفسنا والثقة في مستقبل الحياة.. ولعل اطرف ما في الصبا انه مفارقات مستمرة متجددة ، موفورة الفنى ، يتميز عهده المتوثب المتحفز الحامي، بهذا المزيج من الفروسية والشعر ومن شيء لعله من العصفورية .. ولكن عهده كان في جميع احوال سكونه وحركته ، تجاوباً ضاحكا متفائلاً مع كل شيء في الكون .. واحياناً مع لا شيء ..

في تلك الليلة كان سكون يرين على المدرسة بعد سفر معظم الطلاب الداخليين الى بلدانهم ، ولم يجلس احد منـــا نحن الخمسة الباقين الى العشاء الذي قدمه لنا مطبخ المدرسة بل اكتفينا بمـــا تبلغنا به اثناء تطوافنا نهاراً في السوق ..

ولم نلبث ان آوينا الى مضاجعنا صامتين ، لا يكاد الواحد منا يتبادل كلمة مع زميله وانثنيت انا على الصرر الصغيرة التي تضم هدايا العيد الى اخي واخوتي و ... وتوقفت كفي لحظة عند لفة صغيرة تتميز عن سواها بلون خاص فوضعتها جانباً بعناية، وحشرت الباقي في محفظة الثياب ..

كانت الهـــدايا زمارات ، وجوارب ، ومجمعين من فاكهة الشام ، وعلبة حبوب السعلة لجدتي وامزكا للسكاير لابي ، ومنطوفلة من الصوف محلاة بريش الارنب لأمي .. فلما اغلقت غطاء المحفظة واندسست في الفراش ، اخذت على نور غرفة المهجع ذي الخيوط

الواهنة ، افتح الصرة التي ميزتها عن سواها ، لـكي استروح عبر - اضعت العد - تلك الرائحة الفاغمة التي تند عن الاشياء النسوية الرقيقة ..

وطارت بي الخواطر اليها .. الى العينين الشهلاوين الضاحكتين اللتين هناك .. وترامى من اعماق الذكرى صوتها ذي الغنة الممراح يهتف بي : اهلا .. وتلهب خدي بحرارة قبلتها الخاطفة ، تطبعها لهيفة شاكرة ، وتلامح قوامها اللدن الملتف ، ذو الاستدارتين هنا ، والقبب هناك ،والطراوة البديعة من هنا وهناك ، ثم انفلتت هي كالضحكة العارمة نحو المرآة ، لـكي تجرب عصابة الشال .. وما هي الا التفافة رشيقة حول الرأس ، وعقـــدة فوق الاذن ، وتسوية بارعة عند الجبين، حتى استدار الشال الحرير بالشعر الحرير، ووضح الوجه بعد انحسار هالة الشعر عند، وقد تضرج خداها بحمرة الرضا والزهو والشوق .. واندفع من خلال هذه الصور الوردية ابي يهمس في غفلة عنها :

- بارك الله .. لم تعد دباً يا بني .

كان من رأي ابى ان رسائل الغرام وحدهـا لا تطعم العشاق الخبز ولو كتبت باسلوب ابن زيدون ..

وقد افضى اليّ بهذا السر حين عثر مصادفة على مسودة رسالة كنت بعثت بها اليها مع احد اولاد الحارة ..

في ذلك اليــــوم الذي لا انساه تعرفت في ابي على اظرف صديق .. واكتشفت، ان وراء وقاره نفسها تنطوي على الشباب، وان تزمت منصبه الديني ، لا يلزمه بكتمان مـــا تحت الجبة عن

ولده اليافع .

فلما وقع على مسودة الرسالة ، لم يزد على ان قال ضاحكا ليسكن من روعي .

– نثرك جميل يا ابن ..

ثم استطرد لـكي يخرجني عن صمتي .

– قل لى بحياتي عليك ... ماذا تحكيان حين تنفردان ؟

فأجبت ، وقد وجدت في لهجته الحنون سبيلا الى التسرية عن نفسي :

– لا شيء

فصرخ بي :

– فظاعة .. واخـذت فتحة انفه تتسع وتضيق ، ونظارتاه تهتزان على ارنبة انفه .. وظل يهز رأسه يمنة ويسرة عدة دقائق وهو يفرك كفاً بكف ويقول :

– فظاعة .. مسكين هذا الولد .. فظاعة

ولم يكف بعدها عن سؤالي بين الحين والاخر عن الجماعة .. كيف هم ؟.. حالهم ؟.. ماذا قالوا ؟.. وماذا قلنا ؟.. ولا يكاد يفاجئني مورد الوجه ضاحكا حتى يغمز لي بأحـد عينيه ويقول : اي يا سيدنا من اولها ..

فكنت اطلق للساني العنان في حضرته ، كما لو انه صديقي في مثل سني ، فيسمع ويبتسم ، ويبارك ، ويلوم ، ويوافق ، وتنعكس جميع انطباعات الحكاية في سمات وجهه ، وحركة يديه ، وتململ جلسته ، حتى لكأنه يعيش لحظاتها ويحس انفعالاتها ..

وذات يوم سألني وهو ظاهر القلق :

- هل ترسل هدايا ؟.. قلت بدهشة : هدايا ..

فقال ساخراً : اي نعم.. هدايا.. محرمة، جراب، قلم حمرة .. زمارة ، ضراب سخن اي شيء . المهم الهداية ..

فلم اجب، بل قلبت له احد جيوبي ببساطة مشيراً الى افلاسي.

فهز رأسه باسف وقال :

بصراحة .. انت دب يا ابني ..

فلما رأى تضرج وجهي بلون الدم استطرد مترفقاً :

الهدية يا ابني .. انها تزيل الجفوة ، وترقق النفس ، وتستهوي الكبار والصغار .

قال ذلك ثم قذفني بام الخمس والعشرين وكانت وقتئذ تشتري الدنيا ..

•

لا اعرف كيف نمت ليلتها ..

فلما اشرق الصباح بادرت الى لبس ثيابي على عجل مستجيباً نداء زمور السيارة التي وقفت عند باب المدرسة .

وكنت ضيق النفس اشعر ان شيئاً غامضاً لا يغري بالتفاؤل يتربص لي في بعض الطريق او في نهايتها ..

وكانت السيارة مندفعة كالوحش تشق بساط الاسفلت فيمرق جانباه كطرفي العصا المشقوقة .

وكانت اعمدة التلفون تدور وتتراجع متسارعة كأنها في دوامة.

والمواشي تتبعثر مذعورة تحت الحاح الزمور المستوفز اللجوج ، وقباب القرى تبدو من بعيد ، كأنها عجائز محدوبة الظهر ، تقف متجمدة في العراء ..

ولم البث حين بلغت مدينة حمص ان صادفت رجلا من بلدنا اعمش العينين يمشي و كأنه يغربل فاقبلت عليه اسأله عن احوال البلد ، فلما تبين وجهي حملق فيه بدهشة وصاح :

– هه .. انت هنا ؟!.

قلت : خيراً ..

فلم يجب ، بل لملم دهشته واغتصب بسمة بدت لي كالبكاء ثم انفلت عني مسرعاً وهو يقول :

– عفواً .. السيارة ماشية .

ولبثت بعد غيابه في اطراقة حائرة لا اكاد اتبين شيئا من خلال هذا الضيق الذي يأخذ في خناقي .. حتى ايقظني صوت انبعث من اعماق المرأب يصيح يا الله ركاب حلب ..

فاستدرت ، وغبت بدوري في الزحمة .

ولم البث ان استشرفت بلدتي بعد وقت خلته دهراً ، كما يقال في الروايات .. وكانت غارقة مع غبش المساء في صمت اشبه بالوجوم .. ولم اكد التقي في الطرق الضيقة الملتوية ببعض الوجوه المعروفة مني حتى قرأت فيها المأساة ..

لا ادري كيف بلغت المنزل فقد كنت اعجز من نملة .. ولكني شعرت من خلال البحران الذي تضطرب فيه نفسي ان جموعاً غفيرة من الناس تزحف نحوي ، وتشير بايديها وتصيح ، ثم

تغيب لتبرز بعدها وجوه اخرى ، ضاحكة باكية معربدة .. ومن صميم تلك الضجة الهائلة ، كان صوت جدتي يلوب وصوت امي يندب وصوت اخواتي يتناوح .. وكانت هذه الوجوه تمر بي في مثل لمح البصر دامعة مبعثرة ، ملطخـــة ، مضحكة ، مؤثرة ، وتنعقد الاصوات كلها في كلمة .

- ابوك ..

ورأيتني اندفع نحو الغرفة العليا حيث لا ضجة.. بل السكون يخيم فوق ملاءة بيضاء ، وشيخ اعمى يضع كفه على خده ويرتل بصوت فيه فجوة :

- ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ..

وحسرت الملاءة بهدوء كما لو انني اداعب النائم العزيز ثم وقفت انتظر ..

كنت انتظر ان يهب واقفاً لمعانقتي . اذ ليس فيما حولي رغم هوله ما يقنعني ان هناك حقيقه هائلة تحيط بي .

ليس من شك في انني ضحية كابوس ، او عبء ثقيـل ، فلا الوجوه الباكية ذات السمات المبعثرة ولا الهمس الرقيق الرفيق من اللدات والاصحاب ، ولا المقرىء الاعمى ذو البحة الجافية ، ولا تلك الخطوات المؤدبة التي تدخل وتتراجع بحذر ، ولا الوجه الاسمر الساكن الذي تكسوه ظلال ابتسامة بقادرة كلهـا على اقناعي ان ابي مات .

كيف ؟ ولماذا ؟.. مستحيل !

صمتا ايها الناس بالله عليكم الا ترون ان ابي نائم ، يحلم .. كان

صوت في داخلي يهمس .

اسمعوا .. انني سأفاجئه بشيء واجعله يضحك سأقول بصراحة : انني لم اعد دبا كما كان يظن ، بل اصبحت كما يريـــد ، عاشقاً كالرجال لا كالاطفال ، وها هي العصابة الحريرية هديتي الى الخطيبة.

ان ابي نائم .. كل شيء يدل على انه انه نائم ، وجهه الساكن ولحيته المصبوغة بالحناء وجبهته الصافية من غضون الالم ، وارتعاشة في الجفنين يخيل الي انني اراها .. ثم هاهي جبته متدلية على المشجب وفوقها عمته البيضاء المثناة باناقة . وعلى الكرسي تنبسط منامته الصوفية منفرجة الكمين ، والى قرب السرير ركبت احدى فردتي شحاطه الاسود فوق الاخرى بشير السفر كما تقول جدتي .

اذن .. ما معنى هذه الضجة التي تعكر ضمير السكون ؟!

شعرت ان شيئا التمع في رأسي كحد النصل حين بلغت سمعي همسة عابرة :

— هربت دموعه ..

كانت همسة خافتة ، ولكنها تضخمت في سمعي حتى لكأنها الرعد القاصف . ولعل من خصائص الاحزان العظيمة انها ترهف الحواس ، وتعدها لالتقاط اخفى خفيات الضمائر فكيف بالهمسات والاصوات ..

وفطنت حقا الى انني لا ابكي مع الباكين ، على الرغم من تلامع اليقين في ان ابي مات حقا وصدقا ، وانه ليس نائم كما خيل الي في دفقة حيرتي الاولى .

— مات ..

لكن .. فماذا تعني هذه الحقيقة ؟.. لا شيء .. كل ما في

الامر انني سأصبح رجلهن .. كنزهن .. امي وجدتي واخواتي سأصفق لاختي الصغرى مناديا كما كان يفعل ابي تماما .

- القهوة يا بنت ..

وسوف ادخن في العلن لا في السر ، واضع محفظة نقودي في جيبي ، مثله تماما ، وانثر النقود منها بعناية .. واتصنع التبرم من اعضاء البيت ثم ادفع راضيا ، وادفع بحماسة وسخاء، وادفع دون توقف ، ولا اكف عن الدفع ، سواء اشتغلت ام تعطلت وسواء رفضت ام قبلت ، وسواء كنت سعيداً ام شقيـا ، معسراً ام موسراً ..

انني فتى الاسرة البكر ، وليس يقطف من الازهار والاثمار سوى ما يتفتح او ينضج باكراً .. وما علي ، وانا البكر الا ان افجر رأسي بالدماء لـكي اكسر لهن ، لجدتي وامي واخوتي .. الجوز واللوز .

انني ولي العهد كما كان يسميني ابي ، وقد يعني هذا اللقب تماما معناه الملوكي حين يلد البكر في اسرة تستقبل مواليدها وفي افواههم زمارات من ذهب .. ولكنه بالنسبة الي لم يكن ليعني بالاختصار ، سوى محنة لانني فيما اعلم – ولدت في ليلة شـاتية ، ونزلت الصينية، وانا امص اصبعي ، ومن خلال الضحكات السعيدة التي تلقاني بها الاهل ليلة ولادتي لمحت الخازوق منذ الدقيقة الاولى، لمحت حياتكم الدنيا هذه ، باوصابها وادوائها ، بهيبها ودبيبها لمحت شقاءها وعناءها ، وخرابها وحروبها .. لمحت ما ينتظرني من ليالي القلق والارق ، وايام العسر والضيق ، ومتاعب الطريق .

فصحت من اعماق خوفي : واع ..

ثم همست لنفسي : ارجع من حيث جئت يا ولد .. الفرصة سانحة لن يتاح لك سواها .. يا الله .. الى الوراء در.. واستدرت فعلا وكدت في لحظة مناسبة اعود من حيث اتيت .. لو لا ان بادرت عشرات الايدي الى تقييدي بالقماط .

عدت من خواطري هذه افتش عنها بين الجميع .. فظاعة .. اين هي ..

كانت حواسي في يقظتها الكاملة ، لا يغيب عني شيء مما حولي، كل شيء مما حولي ، كل شيء ، حتى البكاء الذي يشبه التثاؤب .. ومن خلال وجه امي الاسوان ، الحزين ، الملتاع.. ووجه جدتي، ام ابي ، الذي اعتكر بلون الدم الاســـود .. رأيت الوجوه حولي باهتة جامدة ، لم تعرف الاحزان قط .. وتعالى الهمس حولي : فظيع هالولد ما نزلت له دمعة .

فغمغمت مندهشا :

– مصيبة ، هل ابل عيني بريقي لكي ابدوا باكيا ؟ لن ابكي، وليقولوا ..

ولم تنطف عيني بدمعة ، حتى حين حملوا الجسد العزيز لتطهيره بالاغتسال ، بل وقفت جامداً كما لو انني اشاهد لعبة مملة .. فهل جننت ؟..

لا اظن ، فانني عارف بكل شيء ، واع لما حولى ، شاعر بان اثقال الدنيا كلها تجثم فوق صدري ولكني لا ابكي ..

ولعلي شعرت بالخجل لجمودي ، فرحت انظر فيما حولي ، لكي

ابكي ، بالعدوى على الاقل ، ولكن دون فائدة .. فأمسكت عن المحاولة ، والانكي من ذلك انني صرت ابذل محاولة اخرى كيلا اضحك حين وقعت عيني على احد اقربائي يبكي بلهجة الشخير وقد احمرت اذناه فاصبحتا بلون الشوندر المسلوق وكان صوته يهدر بالآهات على صورة غريبة جعلها تبدو كأنها صادرة عن بوق ..

وعدت اسأل : اين هي ؟!

هل يمكن ان تنسى ، هكذا ، بهذه السرعة ، وبيننا عهد ، ان نكون معا في الافراح وفي الاحزان ، والى الابد ؟.

لقد عقدنا على العهد الا كف في لحظة من تلك اللحظات التي تتفجر فيها الحواس بالرغبة والحنان وبالبسمات والدموع . وفي الغرفة ذاتها الذي يسجى فيها جسد ابي .

كنا وقتئذ منفردين تفصل بيننا طاولة وامامنا كتاب مفتوح بجمع الدروس العربية .

وفطنت حينئذ الى ان لها كفاً مخملية رقيقةذات خمس غمازات ، فلم املك ان اطبقت عليها بكفي فارتعشت قليلا ، وبذلت محاولة ضئيلة للتملص .. محاولة ، لا تعني شيئاً سوى دعوة غير بخيلة .. الى الشفتين المحمومتين .. وشعرت يومها ان فيقلبي جناحي طائر ، وجف ريقي ، فرحت ابلله بلساني ، وشملتني رعدة من شعر الرأس الى اخمص القدمين .

كنت انا المعلم الذي لم يعد يعلم شيئاً ، وكانت هي التلميذة التي لم تتعلم شيئاً .. ومع ذلك فقد تعلمنـا ، هي وانا ، في لحظة خاطفة اعمق من المجهول : الاسماء كلها .

ثم عدت اسأل : اين هي ؟.. لا جواب .. فلم يكن وجهها بين الوجوه ، فجلست مطرقاً واضعاً رأسي بين يدي ، اعد نقوش

السجادة من اليمين الى اليسار ثم بالعكس .. وكان اصحابي واقربائي يتحلقون حولي في وضع مضحك : الايدي في الحجور والرؤوس على الاكتاف وقد خيم عليهم صمت مطبق ..

وكان بعضهم مقوس الشفتين كأنه يقول : يا خرابي. فهمست لنفسي : يا ريت .. وعلى حين غرة ، شعرت من خلال الصمت ان همساً ناعما كهتاف المجهول ينبعث من احدى زوايا الدار ..فقمت على عجل ، وتوجهت حيث يتكدس النساء : نساء الاسرة ، ونساء الأهل، ونساء الاصحاب.. فخيل الي انني في حمام حيث لا تتبين الجرن من الطاسة . ولكنني لمحت بين عديد الوجوه التي تلتمع من خلال السواد وجهاً لا ابهى ولا ابدع .. كانت هي، دنياي التي لم اقطف منها زهرة انبعثت كدفقة الذكرى من الاعماق ، كأنها الثمرة الناضجة ، تكاد تنطق عسلا وقشطة ، وتكاد شفتاها تدعوان نحل الارض ، وفي اجفانها الوطف ذلك البلل الفاتن الذي يبقى بعد الحمام ، وكانت تلف شعرها بشال اسود غامق السواد ، انحسر قليلا عند اعلى الجبين فاطلق خصلة من شعرها الخرنوبي تمردت على الحزن .. وكان في صدرها شيء بارز مرتعش يكاد ينطلق ، شيء كطيري حمام حبستها البلوز .

ولم تكد تقع عيناها علي حتى استدارت واجهشت في البكاء ، ولكنني ابتسمت ، وشعرت انني املك الجرأة على اخذها بين احضاني ومسح دموعها بالقبلات ، وتذوق تلك الملوحة العذبة التي تتميز بها دموع الحبيبات ..

انني من احزان الدنيا في افراح لا تدانيها هناءة الارض وامل

السماء يكفي انها لي .. على كثب مني بل في قلبي . ملء قلبي .

وقطع علي تلك الافراح العجيبة التي تنفلت احياناً من اعماق احزاننا صوت رجل ، يهتف بلهجة الاعتداد والثقة :

– نازك ...

فاستدرت انا ، وتقدمت هي ، ورأيتني اواجهه مشتد القامة ، كملاكم مبتدىء قبيل بدء الجولة وكان هو هادئاً ينطق وجهـــه بالعذوبة والاعتداد ، وفي استقامة عوده ما يشعر بالاحترام ومـا لبث ان مد يده بمصافحة ودية كمن يبسط في قلبه ، فلم املك ، بعد تردد خاطف ، ان اخذتها بيدي ، وانا ارتجف كالريشة ..

ثم تقـدمت هي فمددت يدي كأنني في حلم او في كابوس ، ولكنها بادرت الى اخفاء كفها وراء ظهرها بحركة اوضحت لي كل شيء .. فشعرت ان شيئاً في اعماقي يفور ، وشفتي ترتعش ، والاشياء تغيب في ناظري، والوجوه تختلط وتنطمس.. وتفجرت في نفسي ينابيع كانت محتبسة .

النافذة ...

قد يحدث احياناً ، خلال الهدير المتصل في حياتنا اليومية ، ان ننفلت بقوة الى ذلك العهد الطري الذي طواه كر الايام والقاه بعيداً بعيداً ، فاستقر في الذكرى شريطاً تحوطه الظلال .

وقد يمر بنا وجه انسان ، او نمر بشجرة او بنـــاء طريق ، فتتلامح لنا خلالها صورتنا القديمة في فتي مورد الخدين ، متسخ اليدين ، يتعارك مع طابة ، يقذفها في الفضاء ، ويسابق لداته اليها ، وانامل الهواء تعبث بشعره الكثيف ، وقد اختلط الدم بالتراب عند ركبتيه الحاسرتين من بنطاله القصير .

تلك ضريبة الشيطنة التي كنا ندفعها من ثيابنا واجسامنا ونحن صغار ، يدفعها الان اطفال حارة السبكي ، بعبثهم المستمر قرب شباكي ، فلا املك معهم ، رغم صياحهم الذي يثقب الآذان ، ورغم عبثهم الذي ثقب زجاج نافذتي اكثر من مرة الا ان ابتسم ، وابارك الحياة المتجددة دائماً في البراعم ، واتلمس صلعتي اللامعة كطاسة « الرعبة » ، والتي لم يبق فيها شعرة يعبث بها الهواء .. ثم

آمد رأسي من النـــافذة ، لاصيح بصوت يرتعش حنواً : بس يا اولاد ..

فيتوقف الاولاد عن لعبهم ، وترتفع اعناقهم كالفراخ حين تحوم امهم حول العش ، واعينهم تلتمع بمكر عـذب .. وتسود فترة هدوء ، اعرف بالتجربةانها وقتية ، ريثما يقبضون ثمنها: سكراً وشوكلاته واقلام رصاص ، وقد لا يتورع اعقلهم عن مد لسانه لسانه خلفي دونما حساب للمفاجئات ، ذلك لانني اوجبت اليهم ، بتسامحي واغضائي ، ان الكبار شديدو الغباء ، يخدعون بسهولة ، وتخفاهم الاعيب الصغار .

وقد نولع احياناً بيقظة البكور ، لنتشور في الشارع الممتد من الجسر الابيض حتى المجلس النيابي ، حيث جموع العمال تعتقد الارصفة في انتظار الشغل ، والطلاب بقمصانهم المفتوحة، وشعورهم المصقولة ، ولهجتهم الحلوة ، يلغطون ، ويتجادلون ، باهتمام وحماسة وايديهم تبعثر الهواء بحركاتها الدائمة .

والطالبات ، وقد نهدت اثداؤهن قدّ الخوخة الفجة ، يمشين بخُطوات قصار عجلى ، واعينهن حيناً في الارض ، واحيـاناً عبر الشارع ، هنا او هنالك ، حيثما ينطلق الفضول الساذج حامـــلاً اشواقه المكتومة الحائرة ..

ثمة ، يعود بنا العهد ، الى تلك الفترة القلقلة السعيـدة التي كنا نصنع فيها شواربنا من قطن المخدات ، ونستعجل الرجولة باتخاذ سمت الرجال ، ونؤمن بالعشق من اول نظرة ، تندلق علينا من شباك ذي ستائر داكنة، او ترسل من وراء أب متزمت بالغ الوقار.

ويلذنا - شأن من يعد نفسه لقصة بطولة يسجلها التاريخ - ان نضع انفسنا مكان فرتر ، ذلك ان الحب كان في رأينـا : آهات ودموعاً و كتابة رسائل تنتهي دائماً بلوم الاهـــل ، وشكوى الزمان ، وتوديع الحياة .. ثم بقبلة ، - قبلة اخلاص طبعاً - نطبعها على جبين من نهوى ، ولم يشأ حتى اقوانا عصباً واحدنا عاطفة ، ان ينهي حياته منتحراً كما فعل فرتر .

ولعل السبب ان زماننا يختلف عن زمان فرتر الذي لم يتعرف يرحمه الله ، الى فورة الانفعال الفروسي الذي كان يبعثه فينا الاشتراك في مظاهرة ، ننازل فيها رصاص الاحتـــلال الاجنبي ودباباته بالعصي والحجارة .

الا ليت فرتر سلك سبيلاً آخر او عرف لعبـة فوتبول ، او لعبة دحل في حارة السبكي على الاقل ، اذن لعاش حياته واستوفى اجله ، ولم يفجع قراءه بتلك النهاية اليائسة المعروفة .

هكذا كانت الخواطر تلغو في مخيلتي ، حين سمعت صوتاً مرسلاً رقيقاً اقبل في اثر طفلة شقراء في الرابعة من عمرهـــا ، تتأرجح ضفيرتاها المعقودتان بشرائط بيض .

وكانت الطفلة تلوب بين الموائد في اثر كلب من النوع الذي نسميه « ابن اكابر » ، لهيفـة الى الامساك بذيله ، والخبيث يروغ منها برشاقة عابثة كبهلوان صغير .. فاذا شعر ، بوحي من تلك الصداقة المألوفة بين الاطفال والكلاب انه اتعبها ، وان الملل اخذ طريقه الى نفسها توقف عن كثب منها وراح يرمقهـا من خلال اللبدة النازلة فوق عينيه ، مديراً رأسه يمنة ويسرة بشكل من يقول :

« هلم » وذيله القصير يهتز بدعوة طفلية الى متابعة الجري واستمرار لعبة المطاردة بين الصغيرين ..

وعادت اللعبة من جديد ...

وكانت ساحتها حول مائدتي فأخذ ما عليها من اكواب وآنية يهتز منذراً بالخطر .. وانا غير آبه لشيء ، فقد استغرقني ما توحيه الطفولة من مشاعر الحنان والرضى في قلوب الكبار .

واقتربت صاحبة الصوت من مجلسي ، ثم مـــالت على الطفلة تطامن من انفعالها ، وتهيب بها ان تهدأ ولا تزعج الناس . وكانت سيدة في اوائل عقدها الثالث ، ممتلئة الجسم قليلا .. لم تلبث حين تبينت وجهي ؛ ان توقفت تحيتها في منتصف المسافة ، وملكتهـا الدهشة ثم الحيرة وخيل الى ان ابتسامة لطيفة قد شاعت في الزوايا الحساسة حول العينين والغمازتين ، فصعدت نفساً عميقـا ، وتهيأت لدعوتها . ولكنها استدارت بشيء من الارتباك ، وخلفتني الى حال هي مزيج من اليقظة والحلم ، عبرت بي الحاضر ، الى ما قبل عشرين عاماً .. الى النافذة الداكنة التي انحسرت ذات يوم عن وجه سونيا ، فقضت بان يظل بصري عالقاً بها طوال عام كامل ، ينتظر ارتعاشها او انفراجها بصبر منهوك ..

•

وكانت النافذة تطل على سور المدرسة الخارجي فلزمته طوال الفترات التي تعقب اوقات الحصص وتتقدم ذهابنا الى المضاجع ، حتى بلغت بالصبر والاستمرار ان اوجد لونا من التفاهم بيني وبينها

اشعرني وقتئذ بالسعادة والزهو ، وانطقني احيانا بالشعر ..

•

ولم تلبث قصة النافذة ذات الستور الداكنة ان شاعت في ارجاء المدرسة ، شأن جميع الاسرار التي نحرص على كتمانهـــا ، وافتضح مخبأي الذي كنت اسميه برج العزلة ، واصبح « منطقـة حرة » يطرقها كل طارق ، بما قطع علي تلك الاحلام الخواطر التي كنت انسجهـا مع الليل وسيكارتي المخبوءة في تكريرة راحتي تشع بحذر في نجوه عن اعـين المعيدين ... ولكن مصيبتي في الخروج عن عزلتي اهون بكثير من مصيبتي بالقطيعة .

فقد حدث ان كان برج العزلة يموج بالمنتظرين والفضوليين من جماعة الزملاء ، حين اخذت ستور النافذة ترتعش قليلا ،ثم انحسرت عن وجه سونيـا ذي الاشراقة المدهشة فاذا عاصفة من التصفيق والهتاف والصفير تنطلق من محيط الرفقاء ايذاناً بأن النار شبت في القلوب فتواري الوجه الفاتن على عجل ، وانصفق باب النافذة بغضب شديد انذر بالقطيعة ونفذتها . ولم يكن امامي الا ان استعين بالصبر على هذه المصيبة الطارئة متعزيا بما وقع لمن سلف من اهل العشق القدامى ، الذين هجروا من الحبيبات ، وعذلوا من العذال ، وذاقوا مرارة الملام والخصام وتدخل اولاد الحرام ..

•

وانقضت ايام دون ان يجد جديد في امر النافذة ، فقد ظلت

مغلقة لا تبشر بعودة الصلات البكماء بينها وبيني مما اشاع في نفسي كآبة قانطة حدث برفقائي الى تكريسي بأسم « فرتر صفنا » وتطوع شعراؤهم لنظم ابلغ قصائد الرثاء استعداداً لتلاوتها في المناسبة المنتظرة ، حين تسول لي نفسي ان انهي حياتي منتحراً كما فعل الفتى فرتر ..

واشار علي اصحاب الرأي والتجربة ، ان اكتب اليها رسالة اعرب فيها عن اشواقي ، مع طمس سطورها بقطرات من الماء لتظهر كما لو انها كتبت بالدموع ..

واعجبتني الفكرة ، فبادرت الى تحقيقها على الفور .

وكان الصف يقف ورائي كتلة واحدة وقت كتابتها فمن هنا كلمة ومن هنا جملة ، حتى استقامت الرسالة العتيدة فجاءت بعد طول اخذ ورد ، خليطا من المنفلوطي ومجنون ليلى ، ومجموعة دور الانام في انشاء رسائل الغرام ..

ثم انطوينا على سرنا المشترك حتى جاء يوم الجمعة ..

فشهدت غرفة المغسلة ، وتوابعها حفلة عجيبة . اشبه بجلوة العريس تطوع فيها سعيد للقيام بدور الحلاق ، والتصق شعري بجلدة رأسي بعد نصف زجاجة من زيت الشعر ، وبرزت حقائق العطر من الدروج الخفية ، وامتدت الايدي بقوس قزح مشوش ، من ربطات العنق ومناديل الجيب ، وكان بنطالي ممدداً طوال الليل تحت الفراش ، مطواة الطلاب الخالدة التي تعطيهم اناقتهم اليومية ثم خرجنا ساقاً واحدة وبعضنا يغني : الى الامام .. يا ليوث الشآم .

ولكني شعرت بالخوف يتملكني حين اصبحت على كثب من بيتها واخذ قلبي يدق بشدة كطبل المدرسة حين يدعونا الى درس صعب .

وخيل الي من خلال نظرات رفاقي الذين تواروا في المنعطفات انني اقف عارياً وسط الطريق، فاخذ جبيني يتفصد بالعرق وشعرت بالتخاذل وكدت انكص على اعقابي لولا ان برز لي احدهم قائلاً بلهجة التعريض :

– ايش بك .. اهي بعبع ؟

قلت بلهفة من وجد طريق النجاة :

– اعوذ بالله . لكن معلومك .. ابوها !

قال ساخراً : بسيطة ، احمل وقتها صرمايتك واطلب الستر من الستار .

وكأنما الهبت هذه السخرية شجاعتي فاندفعت نحو منزلها لا الوي . وبعد ان زررت سترتي ، وسويت ربطة عنقي ، طرقت الباب ، ووقفت انتظر مرتعداً .

ومرت فترة قبل ان اسمع طقطقة قبقاب تقترب بايقاع موزون تعالت له دقات قلبي بمثل اجنحة طائر يحاول الخلاص من قفصه .

ثم فتح الباب ، في حذر واطلت سونيا ، ولكنها ارتدت مذعورة حين لمحت وجهي وصرخت بيأس :

– يخرب بيتك ..

غير اني بدافع من تلك الشجاعة الخارقة التي يبعثها فينا اليأس سارعت الى القاء جسمي على البـــاب قبل انصفاقه ، مستبسلاً في

معركة الشد والجذب حتى اتيح لي ان اقذف بالرسالة الى الداخل، واركن الى الفرار .

•

شد ما تسرع الايام والاعوام .

ايعقل ان تنقضي اعوام عشرون على ذلك اليوم ؟.

ترى اين رفاقنا اليوم؟. وكيف غدوا بعد هذا الزمن الطويل؟

لقد اعطتنا الحياة اليوم مقاعد متفاوتة ، بعضها في الحكم ، وبعضها الآخر في مقهى ، او في شباك التذاكر باحدى دور السينما وثمة كثيرون ما يزالون على الماشي بدون مقاعد .. وكنا في ذلك العهد سواء في المقعد الخشبي . القاضي يجلس قرب المتهم، والطبيب يؤاكل المريض ، والافاق مع صاحب الحول ، ذلك ان اذهاننا الصافية كانت خالية الا من حقيقة واحدة هي اننا ابناء مدرسة واحدة وصف واحد .

وكانت الظلال قد اخذت في الاستطالة والامتداد مع الاشعة الغاربة ، حين ايقظني من خواطري عودة الطفلة الشقراء ذات الضفيرتين والشرائط البيض وامامها كلبها الصغير يتوثب مرحاً وبينهما ما يشعر باستئناف علاقات الصداقة والتفاهم ..

كانت صورة من امها في ذلك الحين ، لو لا فارق الفتنة بين طفولة ناعمة وشباب متفجر .

فشعرت بدافع يهيب بي ان آخذها الى صدري وادفن انفي في عنقها فترة استعيد خلالها عبق الجنة من شبابي الآفل ..

ولكني قاومت هـــذا الدافع وحولت بصري نحو الطريق المتدة عبر فندق بلودان وسرحته في الفراغ المظلم الذي تشقه الاضواء ولغط الكتل البشرية الممراح كخلايا النحل في نيسان .

وكانت الانوار المتلألئة في حلبة الفندق تنعكس على النحور الرخامية بألق بديع أخاذ ، والموسيقى الناعمـــة تبلل الجو الحار وتشيع فيه خدراً لذيذاً ناعما .. وكانت الطفلة قد استجابت لدعوتي الضاحكة ، وتوقفت مترددة ترمق قطعة الشوكولاته وتسترق نظرة محاذرة نحو كائن بعيـــد .. ولم تلبث ان فارقت حذرها ، واقتربت على استحياء واصبعها في فمها الوردي الصغير ..

واخذت اصابعي تتخلل شعرها ، وتعبث بضفيرتيها ، وتربت على كتفيها العاريين ، حتى اذا فرغت من التهام قطعتها ، ورفعت نحوي نظرتها المتوددة الآسرة ، خيل الي ان صباي الاول قـد انبعث من جديد ، ورأيته يطل علي من نافذتين صغيرتين .. زرقاوين .

جارتنا وحارتنا ...

لم اكن قط من هواة تسلق الجبال لـكي اسكن بيتاً في الجادة الرابعة من حي المهاجرين ، ولكن جفوة المالكين وغلاء اجور السكن دفعاني دفعاً الى الهرب باشيائي القليلة و كيس ثيابي الى آخر ما عمر الله ..

لقد خيل الي وانا اثبت بطاقتي في باب بيتي الجديد انني امنح اسما جميلا لعجوز شوهاء في الغابرين ، فقد كان – عافاه الله – حطاماً من خشب ودك ينهض فوق الارض بقدرة قادر ،ويتشبث بالمرتفع المطل على اسفل الجادة كأنه قطة خائفة ، تغرز اظافرها بشيء ما حذر الانزلاق . وكان فضلاً عن ذلك ، جزءاً من دار واسعة قسمها صاحبها بحاجز خشبي الى بيتين : احـدهما ، وهو النصف الافضل ، تسكنه ارملة تخطت عقدها الثالث بسنوات ، مات عنها زوجها منذ حين ، وترك لها ثلاث بنات كبراهن في العاشرة من عمرها .

وكان الحاجز من الرقة والدقة بحيث جعل البيتين واحداً .

وكثيراً ما يحدث ان استيقظ مذعوراً على حركة غامضة مريبه في احدى الغرف السفلى ، فأبادر وانا بسلاحي الكامل المؤلف من عصا وملقط وفردة قبقاب الى الاخذ بخناق اللص بالجرم المشهود، ثم لا اكشف بعد التريث والتربص والتسمع واستراق الخطوات سوى ان الجارة خارجة من مطبخها .

وهناك مشكلة اخرى اكثر تعقيداً من مشكلة الحاجز ،وهي ان الماء والكهرباء كانا شيئاً مشتركا بيننا مما ادى الى قيام عدد من المشكلات بيني وبين جارتي منذ الشهر الاول لمقامي ، ولكنني رغبة في قيام سلم دائم فيما بيننا حسمت هذه المشكلات كلها دفعة واحدة بان تكفلت وحدي بارضاء الجابي .

ومضت بي الايام هادئة مقبولة لا يعكرها احيانا سوى تلك الغضبات الفجائية التي تنفجر بها الارملة في وجوه بناتها الثلاث ، فيقوم لها البيت ويقعد ، اما انا فكنت اقوم لها ولا اعود قبل منتصف الليل .. فاذا ارتفع صوت الراديو في احيان اخرى وقت القيلولة فإن نقرة خفيفة مؤدبة انقرها على الحاجز الخشبي كانت تكفي لاعادة الهدوء الى بيتنا شبه المشترك .

•

ذات يوم شعرت ان حركة عصيان خفية بدأت في البيت المجاور وفطنت الى ان نقراتي على الحاجز اخذت تفقد قيمها ... ولعل السبب اني اعتذرت مرة عن قبول صحن ملوخية ارسلت به الجارة مع بنتها الوسطى ... ثم هذا الانزواء الذي الوذ به حتى لكأنني

مخلوق من الحيط لا من الناس ... فلا كلمة آرسلها من خلف الباب ، ولا ابتسامه تفتح بيننا بابا من الابواب . حتى كان يوم عدت فيه الى البيت ، وانا كالعادة أتصبب عرقاً من عناء الجادة الرابعة ، تكاد روحي تخرج من انفي ومسامي . ولم اكد اتبلغ بلقمة ، واتهالك كالكيس الجامد فوق سريري ، حتى جأر المذياع باغنية صاخبة من تلك الاغاني التي اختصت بها اذاعتنا ، وكانت موسيقاها مزيجاً من الجعجعة والشتائم والدق بالملاعق على صحون نحاسية ...

ويظهر ان المغني كان مجنونا بلازمة واه ... واه ... فهو يتلمظ بها ، ويدرج ، ثم يتوقف ، ثم يلوكها ، ويعيدها بين مد وخطف وقطع ، حتى خيل الي انها لن تنتهي الى يوم ينفخ في الصور ...

حينئذ غادرت سريري مكرهاً ، ودلفت نحو الحاجز انقره بلطف ، ثم بلطف اقل ، ثم بشيء من العنف ، ثم بعنف اكثر ، مع الشد والخلع والنطح بالرأس ، الى ان سمعت حركة خافتة ، فهدأت قليلاً ، ولممت غضبي ، ورجوت القادم — وكانت الجارة نفسها — بادب جم ان تخلصني مشكورة من هذه الواه .

وتعمدت اكثر من مرة خلال هذه المساجلة من وراء الحاجز ان اخاطبها بلقب « خانم » تأدباً او تملقاً ، ولكنني برغم لهجتي المتوسلة لم افز من الجارة بغير جواب جد مختصر :

— اخرس ... تضرب في عينك !

قالته على عجل ،وابتعدت مسرعة عن الحاجز وتركتني للدهشة

اولا ، ثم للغيظ الذي يضع الحديد فيحيله الى فتاة كالبودرة .

وما هي الا لحظة حتى ارتفع صوت المذياع فجأة فبلغ الرمق الاخير ، واستكمل النغمة الفظيعة ... نغمة الواه ، ومعهـا البرازيت ...

حينئذ طار صوابي وكدت احطم الحاجز ، او انط فوقه مجتازاً حرماته بنفس حماقة ماك آرثر حين اجتاز خط العرض الثـامن والثلاثين في كورية . ولكنني تذكرت ان عداد الكهرباء يقع في منطقة نفوذي فتنفست الصعداء ، وسارعت بلا توقف الى قطع القوة عن المنزلين معاً ، فصمت المذياع فجـأة ، وساد السكون ...

•

وخيل الي في تلك الفترة انني انتقمت او قل حسمت المشكلة بهدوء ، وانني سأنعم بقيلولة هادئة خالية من هـذه الواه واه ... ولكنني لم اكد اضع رأسي على المخدة حتى شقت السكون نقرة ثاقبة على تنكة فارغة جعلتني اهب من سريري كأنني الألف ، وتلا ذلك نقرتان متلاحقتان ايذاناً بالمعركة ، ثم ارتفع رنين هاون اخذ يضرب بصوت اصم ، في ايقاع منتظم تصاحبه دقات خشبية على البلاط ..

ثم تبينت من خصاص الحاجز الخشبي ان هذه الجوقة الشيطانية كانت موزعة كما يلي :

الجارة ... منفضة وتنكة

البنت رقم (١) .. هاون منفرد

البنت رقم (٢) .. ضابطة ايقاع بالقباقيب

البنت رقم (٣) .. تصفيق منفرد

ورأيتني دون شعور مني ارقص على هذه الموسيقى العجيبة ولكن من الالم .

•

لا ادري كم امتد بي الوقت على هذه الحال التي لا ترى في غير العصفورية او في منزلنا شبه المشترك ، كل ما اعرفه ان الصخب انقطع فجأة حين انبعث قرب الباب صوت جارنا الشيخ لطفي ، وهو كهل يدرج نحو الخمسين ، دقيق الملامح مشرق الوجه خفيف الشعر ، كان يسكن غير بعيداً عنا ، وحيداً في منزله .

وكانت تتلخص فلسفته في ان الخير ان يبقى الرجل عزبا طول حياته ، فلا يبلو نفسه بزوجة ولو كانت في اخلاق ستنا فاطمة الزهراء ..

وكان يؤكد ان الافضل لنا نحن الرجال ان نبقى بنصف دين بدلا من استكمال ديننا بزواج يأخذ منا العقل والدين .

وقد رتب الشيخ حياته وفقاً لهذه القاعدة . فكان يقضي نهاره في دكانته الصغيرة ، يبيع الاقمشة الرخيصة مما يلبسه فلاحو القرى المجاورة ، فاذا جاء المساء عاد الى منزله الخالي لينصب بنفسه سماور الشاي ضمن حلقة من بعض سكان الحارة ، كانوا يفدون على منزله لقضاء جزء كبير من الليل في شرب الشاي والتسبيح والثرثرة .

ولا بدع ان يتم تعارفنا بسهولة ، فنحن في الحارة قلة من الناس لا يحتاج تبادل الحديث بيننا الى مقدمات ... ولكنني لم البث بعد سهرتين او ثلاث ان انقطعت عن مجلسه بدافع من تباين المزاج بيننا ، الا من سلام عابر نتبادله في الصباح او في المساء ، الى ان كان ذلك اليوم المشهود الذي اعلنت فيـــه جارتي حربها العدوانية علي .

•

وكانت الضجة بالغة اشدهـــا حين طرق الشيخ باب الجارة وتنحنح بصوت مسموع .. فتخافت النقر قليلا قليلا ثم انقطع فجأة وساد الصمت . وسمعت الرجل يقول بصوت مرتعش خجول :

– خير يا ستي خير .. ان شاء الله فرحكم دائم ..

فتجيب الجارة بصوت متأثر مغناج :

– عدم المؤاخذة .. اصل البنات خادماتك ..

فيردد الشيخ على عجل :

– مفهوم .. مفهوم .. لكن معلومك ، ربنا اوصى بالجار ، والراحة مقبولة وقت الظهر .

ولم املك مزيداً من الانتظار . فدلفت نحو الباب ، وتبينت من خلال فرجته وجه الشيخ لطفي وهو يطفح بالبشر اذ يتخطف النظرة نحو باب الجارة بين طرفة الجفن والاخرى .

ولم يكد يحس بصرير الباب حين اخذت في فتحه حتى ابتعد قليلاً عن موضعه واقبل علي هاتفاً :

– ابن حلال ...

وكان غيظي بالغا انفي من هذه القيلولة القاسية فكدت انفجر بخناقة حامية لولا ان ردني الشيخ بنظرة توسل ، اتبعها قائلا بلهجة رقيقة :

– ما هذه القطيعة يا اخي ! أما تصلحها معنا ؟

فابتسمت ، كأنني اكشر، ولكن الشيخ تأبط ذراعي بلطف واستدرجني بعيداً عن منطقة سمع الجارة ، وبعد ان تلفت بحذر بادرني قائلا :

– اقسم بالله العلي العظيم معك حق ... اقسم بصلى الله عليه وسلم معك حق ... اقسم برب الكعبة انك من الصابرين ... اقسم بالله ان اهل القبور استيقظوا على الضجة ... كلنا مثلك يا اخي اصحاب اشغال ، وتلزمنا الراحه ... ولكن ماذا تفعل ... قل أليس النساء جميعا هكذا ؟...

•

كان في صوت الشيخ غنة حنان لم يستطع اخفاءها حين اخذ يتحدث عن جارتي ، فهي كما قال : امرأة مقطوعة ، ترملت قبل الاوان ، واصبحت مسؤولة عن ثلاث بنات يأكلن شعر الذقن .
ثم استطرد قائلا بلهجة حزينة :

– مسكينة هذه المرأة ... لا بد انها في اشد الحاجة الى رقية تطرد عنها الشيطان .

لم اجب طوال حديث الرجل ، بل لذت بصمت يائس استعمل

الى لون من الهدوء حين التمعت في خاطري فكرة مغادرة الحارة على عجل مهما كلف الامر .

فكل شيء محتمل : وجوه المالكين وغلاء الاجور ، وحياة الضنك ، الا ان يكون عدوك متربصاً لك على الحدود بتنكة وهاون وقبقاب .. فلما قفلت عائداً الى بيتي كنت في حال اقرب الى العزاء بعد ان اقتنعت بصواب هذه الفكرة . ثم مرت ايام ، لم اكف خلالها عن البحث بين السماسرة عن بيت ، ولكن بدون فائدة ، فغلاء السكن مستحكم بالبلد ، وبين المالك والمستأجر عداوة مبيتة تنزل الانتقام دائماً بالمستأجر الجديد ..

ولم البث من خلال مشاغلي الكثيرة وتأخر عودتي ليلا الى البيت ان نسيت موضوع الجارة وموضوع البحث عن بيت جديد ، وقنعت بهذه الهجرة الاضطرارية عن بيتي طوال النهار ومعظم الليل اتقاءً للمشاكل .. ثم اخذت بعد حين استأجر وقتي في البيت بعد ان لاحظت ان الراديو لم يعد صاخباً كما كان وان الهدوء خيم على المكان والسكان ، وداخلني الشك حيناً في ان يكون لهذا الهدوء المفاجيء معنى العاصفة ولكن الايام توالت دون جديد فايقنت ان جارتي قد طرأ عليها طارىء جديد ..

وكانت وحدتي في البيت وانقطاع اسباب الزيارة فيما بيني وبين جيراني وقله ما اتكلفه من فضول تجعلني شبيها بساكن المريخ لا اعرف شيئاً من اخبار سكان الحارة ، الا ما اتلقفه عرضاً من حديث عابر ، او حوار على الماشي ، حين اتلكأ احياناً لدى دكانة السمان . لهذا لم استطلع تلك الرقية العجيبة التي طردت الشيطان

من نفس جارتي ، الا حين قصدت ذات مساء منزل الشيخ لطفي.

كان المنظر كعهدي به في اول زيارة قمت بها لمنزل الشيخ : الحلقة الخالدة وسماور الشاي ، والثرثرة ثم التسبيح .

وتلقاني الشيخ متهلل الوجه ، يكاد يعانقني بلهفته وبشره ، ولم يلبث بعد ان سألني عن الصحة والاحوال والاشغال والاعمال حتى استدار نحو جلسائه يصل ما انقطع من حبل حديثه ..

قال وحبب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من دنياه ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينه الصلاة ...

ولم يكد يمضي في الشرح والتأويل وايراد الشواهد ، حتى تبينت تطوراً عجيبا في فلسفة الشيخ بالنسبة لاعتقاده القديم في المرأة . فهي لم تعد وسيط ابليس بل طيب وانس ، ولم يعد الزواج مسلبة للعقل والدين ، بل سلام واستقرار يجد فيه المرء جنته

وكان يؤكد اقواله هذه بين الفترة والاخرى بقوله :

ـ المجرب ولا الطبيب

فادهشتني تجربة الرجل ، وتساءلت في نفسي : كيف ؟ ولكنني لم افز بجواب .

ودفعني الفضول الى التريث حتى غادرنا آخر زائر . فلما صرنا على انفراد بادرني قائلا ، وهو ظاهر البشر والمرح :

ـ كيف حالك مع جيرانك ؟

قلت : عال ... ولا ارجو الا ان تدوم الحال هكذا .

قال مؤكداً :

ـ ستدوم . انني واثق . فالمرأة ، كما قلت ، مسكينة ...

آدمية جداً .

فقلت معاتبا :

– لعلها مدينة لك بانك طردت من رأسها الشيطان .

فأجاب وقد فطن للهجتي :

– معقول ...ولكن الرقية – بسرك – كلفتني غاليا ...

قلت : كيف ؟

قال باختصار : خطبتها ...

ثم استطرد قائلا وهو يودعني :

– هل انت مسرور .

– مبروك

فأجاب ضاحكا :

– خلصناك يا سيدي من النقر على التنكة ... حلو ؟ كان لا بد للمسكينة من تنكة فارغة تلهو بها . وقد وجدتها .

قال ذلك وكشف عن صلعته واخذ ينقر عليها طروبا .

كتاب الرابطة الثاني

هذا الكتاب ، هو الحلقة الثانية في سلسلة الكتب الشهرية التي تصدر عن رابطة الكتاب السوريين بعنوان « كتاب الرابطة » ، وتقوم « دار القلم » بنشرها في بيروت .

ومؤلف الكتاب الاستاذ سعيد حورانية ، من ادباء الشباب المجددين ، ومن مؤسسي رابطة الكتاب السوريين التي يرجى ان تدفع بالادب السوري من ركوده القديم ، ليجاري موجة التقدم والتطور التي تمتد اليوم بسعة وعمق .

ويشتمل الكتاب على تسع قصص كتبها الاستاذ حورانية في وصف بعض جوانب الحياة الاجتماعية في سورية .

ويبدو من مجموع هذه القصص ان المؤلف موهوب في فن القصة ، فهو قاص ذو اصالة ظاهرة يدل عليها حسن تصرفه في خلق الجو القصصي دون عناء كبير ، ويزيد هذه الميزة ظهوراً ، دقة اختياره للالفاظ والتعابير التي تساعد القارىء على ملابسة جو القصة ، لو لا ان المؤلف مولع بان ينقل بطل قصته فجأة من موقفه الذي

يعيشه فعلا ، الى موقف سـابق يعيشه بالذكرى ، فاذا البطل « مزدوج » الشخصية ابداً ، واذا القارىء يصطدم بهذا « الازدواج » فينغص ذلك جو القصة عليه .

وهذه الظاهرة ، تبدو في جميع قصص المجموعة ، ونضرب مثلًا على ذلك من قصة « سريري الذي يئن » ، فان بطلها ، بينما هو في غرفته الجديدة التي استأجرها بعد مغادرته بيت والده يتحدث عنها مسترسلا ، اذا به ينتقل فجأة من غير تمهيد ولا انذار ، الى بيت والده ، الى موقفه مع اخوته واخواته في اللحظات الاخيرة وهو يستعد لمغادرة البيت .

قد تكون هذه حيلة قصصية يتعمدها القاص حفاظا على تقاليد القصة الكلاسيكية ولكن هذه الحيلة ، اذا صح وجوب الحفاظ عليها تحتاج الى براعة ودقة بحيث لا يحس القـارىء بشيء من التنغيص وهو يتحول من موقف الى موقف .

وسعيد حورانية ، بعد هذا ، يعنى بتفاصيل دقيقة في الوصف والتمثيل لا تخلو من متعة وطرافة ، مضافا الى حسن اثرها في تكوين الجو القصصي الدافىء .

•

هذا من الوجهة الفنية الخالصة ، واما من حيث الموضوع ، ومن حيث الرسالة التي تضطلع بها رابطة الكتاب السوريين — فان لنا مؤاخذات كثيرة على قصص المجموعة كلها ، دون استثناء .

فنحن نعلم ان اخوان هذه الرابطة قد اعلنوا في بيانهم القيم ،

يوم تألفت رابطتهم ، انهم « كتاب تقدميون بكل ما في الكلمة من خصب ».

والتقدمية ذات معنى نسبي مرن ، غير مطلق ولا متحجر ، وهي بالنسبة للظروف التي تحيط بالحياة السورية في يومها الحاضر وفي محنتها العسيرة الراهنة ، انما تعني النضال من اقرب طرق النضال واشدها علاقة بهذه الظروف نفسها .

صحيح ان معظم قصص سعيد حورانية ، في هذه المجموعة ، تأخذ مادة الموضوع من حياة الناس ، وتأخذ مادة الوصف والتصوير ومادة الحركة من الوان الحياة الانسانية في الشعب السوري ، ولكن الموضوع نفسه الذي تقوم عليه قصة سعيد ، في هذه المجموعة لا يمس قضية النضال من قريب ولا بعيد .

ان مواضيع هذه القصص ، لا تزيد عن كونها عللاً اجتماعية ذات جذور متأصلة في المجتمع السوري ، وليس للوضع القائم الآن في سورية يد في ايجاد هذه العلل ، فعكوف الكاتب على معالجة هذه المواضيع بالذات في هذه المرحلة الوطنية بالذات ، ليس يعني شيئا من « التقدمية » التي هي طابع « رابطة الكتاب السوريين » وهي سبب وجودها ، لانه ليس يعني شيئا من نضال هذا العهد الرابض على صدور السوريين والقابض على مجاري انفاسهم ..

هذا ، مضافا الى بعض قصص المجموعة يدور على عاطفة فردية محدودة لا تتصل بالحياة العامة ، كقصة « اخي رفيق » ، فان كلا الموضوع والمعالجة ، في هذه القصة ، ليس بذي شأن ، حتى من الوجهة الفنية المحض ، اما الموضوع فعادي جداً ، واما المعالجة

فسطحية ، لا يبلغ عمق المعالجات الانسانية لعاطفة الاخوة الثاكلة.
وقصة « اومة الشيطان » كنا نرجو ان لا تكون في هذه المجموعة اطلاقا، وهي ابعد ما تكون عن روح التقدمية من حيث طريقة العرض والمعالجة، وان كان الموضوع لا يخلو من بريق تقدمي
ولنا ، اخيراً ، اعتراض على بطلي قصة « الخيط المشدود » وقصة « سريري الذي يئن » بان كليهما يختلف مع اهله على امور ليس من واجب الشاب التقدمي ان يجعل منها موضوع خلاف مع اهله ، لانها ليست هي اساس المشكلة القائمة الان بين الرجعية والتقدمية ، وانما اساس المشكلة الحاضرة بينهما ، هو — اولا — قضية التحرر الوطني من الاستعمار الخارجي والداخلي ، وهو ثانيا — تقرير مفهوم صحيح لقيمة الانسان ييسر له الوصول الى حقه السياسي والاجتماعي والدستوري ، الذي يتلخص بتحقيق تكافؤ الفرص امام جميع المواطنين ، للحصول على كفاية العيش والعلم والصحة والابداع في مجالات العمل والفكر والفن .
ونلاحظ في بطل قصة « الخيط المشدود » وقصة « سريري الذي يئن » انهما يتخذان طريقة الاستفزاز سبيلا لاقنـــاع والديهما بما يختصمان فيه ، ونلاحظ في هذين البطلين ايضا ، انهما ضعيفا الارادة عاطفيان سريعا ما يلجآن الى الغضب ومغادرة بيتهما لسبب تافه ، ثم يندمان لسبب عاطفي تافه ايضا ، وليس لهما منهج عملي ايجابي يشقان به طريق حياة مستقلة تفرض احترامهما على سائر اهلهما .
هذه ملاحظات نعتقد انها ذات علاقة بجوهر الرسالة التقدمية التي تضطلع بها رابطة الكتاب السوريين ، انما نذكرها بهذه الصراحة

وبهذا التاكيد ، اخلاصا للقضية التي نشاركها الحفاظ عليها، ونرجو ان تكون حلقات « كتاب الرابطة » التي تأتي بعد هذا ، اعمق صلة بهذه القضية ، واكثر حفاظا عليها . ونعتقد ان اخواننـــا اعضاء الرابطة شديدو الحرص على ذلك دون ريب .

«عن الثقافة الوطنية»

فهرست



بعض منشورات دار القلم

ستالين	المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية	٧٥
ج. ي غليزرمين	الطبقة والامة	٧٥
غوركي	انسانيتان	١٠٠
اوستروفسكي	والفولاذ سقيناه	١٥٠
ايليا اهرنبورغ	اميركا كما شاهدتها	١٠٠
تولستوي	الحرب والسلام (عشرة اجزاء) الجزء	١٠٠
مكسيم غوركي	اميركا بلاد الشيطان الاصفر	١٠٠
وصفي البني	مع الانسان السوفياتي	١٥٠
الخوري طانيوس منعم	وعلى الارض السلام	١٠٠
كاظم السماوي	الحرب والسلم	٥٠
نسيب نمر وحسن فخر	نحو مستقبل سعيد ، مشاهدات في رومانيا ومهرجان الشبيبة	١٢٥

ثمن النسخة : ١٠٠ غ ل
طبع على مطابع الاستقلال